عباس بيضون

خريف البراءة

رواية

دار الساقي

مكتبة الرمحي أحمد ١٣٩

عباس بيضون

خريف البراءة

للمزيد والجديد من الكتب والروايات

زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- ب. ب. ب.
- الموت يأخذ مقاساتنا
- بطاقة لشخصين
- مرايا فرانكشتاين
- ألبوم الخسارة
- ساعة التخلي
- الشافيات
- صلاة لبداية الصقيع

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

© دار الساقي 2016

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

القسم الأول

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

من غسّان إلى فؤاد

إنها رسالة، فضلت أن أكتبها بالقلم كما كانوا يفعلون. قرابتنا لا نحتاج إلى أن نبدأ فيها من الأوّل. لقد تربينا معاً كأخوين تحت نفس السقف. أدخلني أبوك إلى العائلة بعد المصيبة التي نزلت بنا. كنت أكبر منك بعامين وسامية بعمري. أبي الذي فرّ من ليلتها اختفى كل هذه الأعوام لكنه رجع يكتب لي. يقول في رسالته الأخيرة إنه سيعود ليراني. أنا خائف لهذا أكتب لك. لم تعد في البيت. أبوك يقول إنني وحيده الآن. لا أكره أبي لكنّي بالكاد أذكره. لا أحقد عليه لأنه خنق أمي. يقولون إنها خانته وإنه وجد عشيقها في فراشها. أنا أيضاً لا أكره أمي، لا أشعر أنها خانتني. أحياناً فكرة أن يوجد رجل في فراشها تبلبلني، لكني لا أكرهها. أحياناً أريد أن أتعرف على عشيقها الذي لم يذكر أحد إسمه. أكيد أن أبي يعرفه. حين نتقابل سأسأله عنه. أفكر أنه أقرب إلي من أبي وأننا معاً نتقاسم شيئاً ما. يقولون إنني ربما كنت ابنه. لا يعرفون من هو لكنهم يلصقون بهذا الشخص، الذي لا يعرفون، أشياء كثيرة. يعرفون حتى طوله؛ ألم يقفز من الشرفة دون أن يكسر رجليه؟ لقد وصل إلى الأرض سالماً، وإلا كان شوهد وهو يتحامل

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

على نفسه. لماذا تركه الكلب يهرب؟ ألأنه كان حقاً من العائلة لم ينبح حتى عليه؟ هل أبي هو الوحيد الذي يعرف السر، لكنه اختفى من ذلك الحين ولم يقل شيئاً. بقي الجميع حتى خالي أبيك موضع شك، لكن أحداً لم يتحرك من مكانه. ظلوا جميعاً في البلدة، لم يبتعد أحد. لو كانوا حقاً متّهمين لأظهروا علامة. عمي انتظر سنتين حتى غادر إلى بيروت. الصمت جعل الشكوك تذهب بعيداً. فكّروا بأقرب الناس. عمّاي كانا المشبوهَين الأولين. أرادوا أن تكون الخيانة في البيت، لكن بادرة واحدة لم تدلّ على ذلك. أنا كرهتهم لكنهم ظلوا يتقرّبون مني، هم وأولادهم. قالوا في البلدة إنهم يريدونني صهراً. أجملهن يسرى ابنة عمتي بشرى كانت صريحة، كعادتها، في كل شيء. ترسل أخاها الأصغر يبحث عني وتستقبلني بكامل زينتها، تُعدّني لأكون خطيباً. صحيح أن عمي عادل فكّر في أن ينتقل إلى بيتنا المهجور منذ الحادثة، لكنّي رفضت ولم يعاود الطلب. لقد تربّيت بين أولاد أخوالي، لكني لم أقاطع عمّي وعمومتي وعمّتي وأولادهم. لم يكن من سبب لهذا إلا أن أكون صدقت الشائعة. لم ينبح الكلب لكن هذا لا يكفي لأتّهم عمّي. إنه الآن مربوط في الحديقة وأنا أعتني به؛ أطعمه وأمشي بصحبته. إنه الباقي لي من عائلتي. يسرع أمامي ويعود إلي ويلفّ حولي. لقد صار عجوزاً وبدأ نظره يضعف. لم يكن جاوز السنة حين ماتت أمي. بقي أياماً على قبرها قبل أن يعيده خالي ويربطه في الحديقة. يريدني خالي أن أتركه للآخرين يهتمون به، أصرّ أن أكون أنا من يفعل ذلك، وكل مرة في وقتها. أحبّ كيف ينبح وينطنط ما إن يشعر بي؛ إنه عجوز لكنه ما زال يقف على قائمتيه

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أمامي ويلحوسني ويلفّ حولي. يظنونه الوحيد الذي يعرف السر. ينتظرون أن يجرّ واحداً من قميصه، أن يقفز على واحد ويقيّده، لكنه لم يفعل ذلك. تركه أبي في الدار واختفى. حينما اكتشفت الجارة أمي مخنوقةً في فراشها صاحت وتوافد على صوتها الجيران، وركض أخوالي وخالاتي الذين يسكنون في الحي نفسه. أعمامي الذين يسكنون في أطراف البلد تأخروا حتى جاؤوا، ومع ذلك كان تأخّرهم مستهجناً. لقد خنق أبي والدتي وكان ذلك أمراً لا يستطيعون أن يحلّوا أنفسهم منه. أخوهم هو الذي فعل ذلك وليس سهلاً عليهم أن يوجدوا في مكان جريمته. كان تجرّؤهم على المجيء اتّهاماً لأمي وحِلاً لأبي من جريمته. كانوا مرتبكين وجاؤوا في الأخير، حين ملأ الناس البيت وتأكّد أنّ أبي هرب بفعلته. مع ذلك أدانهم الناس بما فعله أخوهم. حضروا مجتمعين هم ونساؤهم وأولادهم الكبار واحتشدوا في جانب من البيت، تحت نفس الحائط، تحت صورة أبي المعلّقة وتركوا الآخرين يدخلون ويخرجون. لم يصيحوا ولم يرفعوا صوتاً، لقد جاؤوا فقط لكي لا تقع الجريمة عليهم. حضر الدرك من مخفر البلدة لكنهم لم يفعلوا شيئاً. كانوا يعرفون أن لم يعد لديهم ما يفعلون. منذ دخل الفدائيون إلى البلدة والتحق كثير من أبنائها بهم صارت هذه المسائل لا تخصّهم بل لا تخصّ أحداً. لقد هرب والدي وليس هناك من نسأله عن الجريمة. كان على الجميع أن يتأكدوا من الجريمة أولاً. هرب أبي دليل، لكن إذا كان وجد رجلاً في فراشها فمن حقه أن يقتلها. الناس يعرفون أنه غضوب وشرس وطالما خلّصوها من يديه، لكن الآن المسألة مختلفة. لقد رأى رجلاً في فراشها. لم يتأكّد أحد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

من ذلك لكن الجريمة تساوي أمراً من هذا النوع. الجريمة بحجم خيانة كهذه. الجريمة دليل على الخيانة. احتشد أعمامي تحت صورة أبي ولم يتكلموا. بالتأكيد دارت في رؤوسهم أسئلة كهذه. بالتأكيد أخذ الآخرون مع الوقت يسمعون في نفوسهم ذات الأسئلة. ما أن دفنوا أمي حتى كانوا أدانوها. منظرها مخنوقةً في فراشها دليلٌ عليها. كانوا بدأوا يتكلمون باسم العشيق، لم يجدوا اسماً لكنهم خمّنوا بأنه قريب، قريب جداً. اختفى الأب واختفى العشيق. لم يكن الأمر صعباً، تمّ بسهولة ولا بد أنه تمّ ضمن البيت. لا بدّ أنه كان تصفية حساب عائلية، وقد تكون مسألة بين أخوين؛ قد تكون بين أولاد عم. بالتأكيد هي لا تبعد عن ذلك.

قد تكون مسألة سفاح، امرأة تجامع شقيقين في ذات الغرفة وعلى نفس السرير. من بين الأخوين اللذين هما عمّاي اختاروا عُمَر الأصغر ليكون المشبوه الأول. كان في عمر أمي، ربما كان هذا سبب اختيارهم له عن عمّي الأكبر منه والأضخم والأوسم، وفوق ذلك له صيت كبير مع النساء. اختاروا الأصغر الذي بدا لهم الأحمق، كان حتى يتأتئ. قابلوه بوالدي الضخم والعنيف والذي سرعان ما يرفع موساه. يقال إنهم أعطوه أمي خوفاً منه. لم يكن في مقدورها أن ترفض. استوقفها في الطريق وأبلغها أنه سيخطبها. أبوه يمتلك نصف البلدة. في الحقيقة كانت أمه الوارثة والأملاك لها، لكن الأب الذي وضع يده عليها صار بذلك وجيه البلدة. قال والدي إنه سيخطبها، لكن والدتي المعتدّة بأنها أجمل صبايا البلدة رفعت حاجبها ولم تجب، لم يعجبها أن يكلّمها وسط الطريق. كانت مع صاحبة لها

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وحكى معها في حضورها. لم يقف معها جانباً ليكلّمها. أبلغها ومشى ولم ينتظر جواباً منها. كان يبلغها فحسب. هذا بمثابة أمر. لقد قرر عنها وعليها فقط أن تعرف. أمه لم تردها له، وقالت أمام كثيرين إنها لن تنزل إلى بيتها المغمّ لتخطب بنت صاحب الدكان؛ لا يليق بها أن تفعل. تكلّمت البلدة في الموضوع وبلغت شظايا منه أهل والدتي. عندما كثر الكلام لم تطق. نزلت إلى بيت عمتها في بيروت وغابت عندها. بعد أسبوع لحقها والدي إلى بيروت وأبلغها أن عليها أن تعود. والدتي هذه المرة رفعت حاجبها وقالت: ليس هكذا يخطب الناس، إذا كان يريدها فإن عليه أن يكفّ لسان والدته عنها. ليست بلا قيمة إذا كانت بنت صاحب دكان. إذا كانت أمه لا تتشرّف بأن تزورهم في بيتهم فلا داعي للمسألة كلها. والدي سمع ذلك وغضب، أمسك نفسه عن أن يضربها، لكنه مع ذلك هددها: إذا لم ترجع فإنها ستكون مسؤولة عمّا سيحدث. عادت والدتي في اليوم ذاته، خافت أن يهين أحد والدها، لكنها لزمت بيتها لا تخرج منه. في النهاية تنازلت أم والدي وزارت أهل والدتي وخطبتها. وافقوا ووافقت. كفتهم هذه الزيارة. لم يكن في البلدة من يردّ عريساً مثل أبي.

لم أكن أتممت عامي الثالث بعد. نقلوني إلى بيت عمتي بشرى. كان بيتها مليئاً بالأطفال، ستة وواحد جديد يزيد البيت ضجيجاً، واحد جديد لن يكون مرحّباً به من البقية. كنت أبتعد خوفاً لكنهم جروني إليهم ووضعوني وسطهم. هكذا صرت موضوعاً لتجاذبهم. كان في لعبهم مكان لمن يتلقّى تدافع الآخرين وأحياناً صفعاتهم،

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

وأنا صرت غالباً ذلك الشخص. كانت عمتي تدافع عني، فأنا اليتيم الذي يحتاج لإحسانها، لكن هذا جعلني هدفاً لانتقامهم. لا بدّ أنّ شيئاً حدث حتى انتقلت إلى بيت خالي جواد. هذا الانتقال كان فرجاً لي. كنتما أنت وأختك سامية من عمري، بل أنا الذي كنت صرت في الخامسة أزيدكما أياماً من العمر، كأنما كنتما تحتاجان ثالثاً وتنتظرانه. أضفتماني بسهولة إليكما. الثلاثة يجدون ألعاباً أكثر ممّا يجد الاثنان. أمّكما، التي فهمتُ أنها كانت صاحبة أمي، اعتبرت حمايتي واجبها. ظلّت عمّتاي وظلّ عمّاي يراعونني ويساعدون في تربيتي. سجّلوني في مدرسة أجنبية مكلفة لم يكن في مستطاع خالي أن يسجّلني فيها، ولم يسجّل فيها ولديه. بعدها نقلوني إلى الجامعة الأميركية، وأنا كنت تلميذاً مجتهداً لأن أحداً لم يدفعني لأكون كذلك. لم يربّني أحد لكن الشارع لم يتكفّل بي. خالي كان يخاف أن يربّيني، كان يعتبرني وديعة وعليه فقط أن يحميني ويحافظ علي. أنا من جهتي بحاجة إلى أن أكون في عائلة، لذا علي أن أصنعها. حاولت أن أكون اليد اليمنى لخالي. اعتبرت قراراته فريضة التزمت بها، وحاولت أن ألزمكما بها، حتى حين تكون غير مفهومة. خالي أرادني أن أكون صديقاً لأولاد أعمامي. هذه المرة لم تتم الأمور بسهولة. لم يكونوا مستعدين لذلك. حاولت أن أجبرهم عليه، أنتظرهم في بيوتهم وأجدهم حين يرجعون لا مبالين بي. قتل والدي لأمي لصق بي، كان إرثاً لا أستطيع أن أتحرر منه. كنت موجوداً في الاحتياط ولا أقدر على أن أصبح بسهولة في العائلة. هذه الوصمة كالوحمة على جلدي ولا ينساها أحد عنّي، كأني ابتدأت منها. حتى

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

نظرات الآخرين لم تخلُ من الإشفاق أو الإدانة. كانت هذه هديتي تقريباً، لقد جئت من فعل قتل، من جريمة. أحسب أنني باجتهادي أردت أن أغطّي عليها، خشيت دائماً أن يبدر مني ما يشير إليها، حتى أنني عرفت الطريق إلى المسجد وأنا في الثالثة عشرة، وتعمّدت أن أحمل القرآن بيدي وأن أصوم أياماً من الشهر. ذلك كله لم ينجح في تطميني. كنت أفزع من رؤية سكين وحبل كأني أحملهما في داخلي. أول كأس بيرة شربته شعرت معه كأنّي قاتل، لكنّي أصررت على شربه كأني أصرّ على القتل. تلك الليلة عدت متعباً للغاية واستغرقني النوم توّاً بدون انتظار. كنت دائماً أحس أن أصابعي قصيرة لأن أصابع أبي أطبقت على عنق أمي، وكأنّ قصرها عاهة تساوي القتل.

لم أشاهد أمي مخنوقة، حالوا دون أن أراها وأنا خفت من وجوههم الجامدة فلم أمانع. ما زلت للآن أحاسب نفسي على أنني حرمتها من أن تلقي النظرة الأخيرة. لكنني كوّنت ممّا التقطته أذناي من كلام عمتي بشرى صورةً، عن لسانٍ مندلع من بين الشفتين وعنقٍ مزرقٍّ وعينين نافرتين من محجريهما. صورة تزداد مع الوقت تشوّهاً وكأنها تعاقبني على تهرّبي. كنت هكذا أخاف من أمي الميتة وأخاف بالضبط من موتها، من لسانها المندلع وعينيها النافرتين. ما سمعته من عمتي بشرى أو ما التقطته منها عن أمي يزيد الصورة اختلافاً. كانت أمي بنت صاحب الدكان التي تتشاوف على أسيادها. كانت أيضاً ذات العين البلقاء التي تأكل الرجال. عمتي بشرى تتعمّد أمامي أن تمتدح والدي، تصفه بأنه حنون، تلقي هكذا التبعة على أمي التي وحدها تتحمّل مسؤولية ما حلّ بها. هذه جريمتها وهي التي جلبت

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الشر على نفسها. لم أسمع من خالي الكلام نفسه. بالنسبة له والدي وحش وأمي جميلة جداً، حمامة. ليس هذا كلام خالي وحده، كثيرون يقولونه بطرق أخرى. يقولون عن والدي إنه قبضاي وجبّار وقوي كسبع، لا يستكثرون عليه ما دام هكذا أن يضرب أيّاً كان، فهذه مهنته وهذه خاصيته. لا أحد يفاجئه أن يضرب، وأن يضرب امرأته فهذا من جملة الضرب، وهذا من قوته وقبضنته. رجل كهذا ينبغي أن تخضع امرأته له، وليس لها حق في أن تكون غير ذلك. يقولون عن والدي أنه عنيف وأنه يبادر إلى معاقبة من لا يطيعه. والحق بطبيعة الحال يقع على من لا يطيع. لقد استفزّ قوته وجعلها تظهر، فكيف إذا كان هذا قريباً، إذا كانت امرأته هي العاصية. أليس في ذلك إهانة لقوته؟ أليس عليه أن يؤدّبها بدون تردد؟ كان هناك مع ذلك من يدينون والدي لأنه قتل تلك البريئة، ليس من حقه أن يقتلها حتى لو كانت مدللة وفائرة الأعصاب. كنت ألتقط هذا الكلام الذي يزيدني استبهاماً. لم أحب عمتي بشرى ولا عمتي الثانية خلود ولا أولادهما. لا أجد سبباً لعدم الحب هذا، لكني لا أقدر على حبهما. كنت بدون أن آخذ موقفاً أعرف أن هذا هو الجو الذي اختنقت فيه أمي، ومهما يكن السبب فإنه يبقى جواً خانقاً. أشعر أنني لا أجد هواءً كافياً فيه وأحسّ من بعيد أنّ كراهية أمي تنتقل إليّ. كنت هناك مثلها ضعيفاً ومهجوراً، ورغم أنني لم أتماثل معها إلا أنني لستُ في نظر عمّتي وأبنائهما سوى ابنها. لم أكن ابن أبي إلا بمقدار، ذلك الأب الذي تشرّد بسببها وربما بسببي. كانوا يلتقطون أخباره ويتحسّرون عليها. نسيت من زمن قصة مقتل أمي. الآن بقيت قصة الهارب الذي

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

يهيم في الجرود أولاً ثم وراء الحدود. أحد أعمامي خالد غالباً ما يلتقيه ويحمل إليه المال ويعود متحسّراً. كنت أشعر بنفسي لدى عودته مكروهاً، لم أكن أسال ولا أريد أن أعلم أين هو وماذا يفعل، لكن عمي رغم ذلك ينقل لي سلامه. كنت غير آبه، وهذا ما يستفزّ أعمامي وعائلاتهم. صمتي وهم يحدثونني عن أبي يجعلني أمامهم عديم الإحساس وقاسياً. لديهم ما يكرهونني لأجله، ولدت وسط تلك الجريمة وكأنني ابنها. الذنوب التي نحملها من غير قصد هي التي تظهر في وجوهنا.

ذنوب تنتقل بالإرث والعدوى أو حتى نولد بها. كلما كبرت كنت أصير أكثر ابن أبي، وتتغير نظرات الناس إلى يديّ وكأنهم يرون دماً أو آثار دم عليهما. الجريمة، كالحب، تحتاج إلى اثنين، وإذا كان في وسع الأول أن يغسل يديه، فإن الثاني لا يستطيع أن يزيل طابعها عن وجهه أو آثارها عن رقبته. إنها معقدة ولا نفهم بسهولة الردود عليها. لذا أصرّت عمتاي بشرى وتغريد على دفن أمي في حديقة البيت، ولم يخالفهما في ذلك عمّاي ولا خالي أبوك. لم أفهم لماذا أرادوا أن لا ينقلوها إلى المقبرة، وما صلة ذلك بالجريمة؟ هل أرادوا أن تبقى الجريمة في البيت ولا تخرج منه؟ نصبوا تحت شجيرة الرمان شاهداً رخامياً منحوتاً بأقواس متتالية وأمامه مستطيل يمتد منحدراً فوق دعامتين واطيتين إلى أن ينتهي في أسفله بشاهد قصير مقوس، وإلى جانب الضريح حوض تتدفق فيه المياه من نافورة وسط محيط أزرق تبدو فيه السماء منعكسة. لا أعرف لماذا أصرّوا على أن يبقى كل شيء في أرضه إلى أن يجد الصراع الناشب نهايةً أخرى. هل

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

خافوا أن تفشي الجنازة أموراً فوق مستطاعهم تحمّلها. أراد خالي أن يدمغهم بالجريمة لكنّ عمتَيّ أرادتا أن يبقى الأمر في العائلة وأن يُدفن معها. بعد ذلك خطر لعمي عادل أنّ هذا غير جائز دينياً. إنّ من الكفر تحويل بيت إلى مدفن. كان يفكر في أن ينتقل إلى البيت، وفي الانتفاع منه بطريقة من الطرق. لكنّ عمتي صدّته وخالي لم يوافق. مضت سنوات على الجريمة وليس محموداً نبشها من جديد، ثم إنها لا تزال معلقة ولم تُختم، وليس نقل الجثمان سوى تجديد لها، سوى إطباق اليدين ثانيةً على العنق الملوي.

لم يكن بيتكم بعيداً منه. كنت أتفقّده. أدفع الباب الحديدي الأسود المغبرّ المقشور، فأجد نفسي وسط أشجار الزنزلخت والكرمة القليلة وشجرة الموز وشجرة الليمون. ثمة عشب مقصوص بين الأشجار والحوض نظيف والنافورة تقذف المياه الصافية التي تعكس المحيط الأزرق، والضريح مغسول، فقد عنيت عمتاي بالحديقة وكانتا ترسلان من يقصّ أعشابها ويمسح الغبار عن الضريح. لم تكن عمتي بشرى تسكت عن ذلك، بل تذيعه مراراً، وكأنها تُمنّن والدتي المدفونة بالاعتناء بضريحها، وتُلحق ذلك بعبارات يُفهم منها أنها لا تستحق، فقد كانت المرحومة "جقرة" وطويلة اللسان. هكذا تستمر المشاكل بين أهل أبي والضريح الباقي وسطهم وعلى أرضهم. شيء يتواصل وراء الموت، حزازات تشقّ الأكفان ولا تعرف حدوداً وتفضل تدور خلف الغيب وخلف الواقع. كنت أجول في الحديقة بدون أن أفكّر في تجاوزها والدخول إلى المنزل. لم يهمّني البيت ولم يهمّني القبر، وهكذا كنت أحب نفسي. أعرف أن الآخرين

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

يرثون لي لكني لا أبالي برثائهم. أفهم أن ما حصل لي ليس له مثيل، لكني أظن أن الاخرين يشعرون بثقله أكثر مني. لم يكن صار ثقيلاً عليّ بهذا المقدار. أنا نفسي لم أعرف ما الذي يدفعني إلى الذهاب إلى الحديقة ولماذا أجد أنساً فيها.

كنت قد صرت في التاسعة. أمضي وقتي في أحلام يقظة مستمرة، أنسج حكايات لنفسي وأدور فيها. كانت حياة أخرى تتجلّى لي، وأنا أول من يتعجّب منها. من يتعجّب من هذه القدرة على استدعاء الحكايات، من هذه القدرة على نسجها وعيشها. أظن نفسي الوحيد في ذلك، الوحيد الذي يؤلّف لنفسه كل ذلك، أو الوحيد القادر على عيش أمور لا تقع لكن، كأنها تقع. كانت حتى أشيائي الصغيرة والعادية تتحول إلى أحلام. حتى إن الهواء الذي يحيطني مأهول بالأحلام. إنه فضاء من السحر حولي. كنت قادراً على أن أكون وحيداً، قادراً على تحويل الفضاء إلى قصص وإلى حياة. أذهب إلى الحديقة أتسلّق الأشجار، أرى القبر بدون خوف. أعرف القصة، قصة خنق أمي، لكن حتى هذه أقدر على أن أعيد تأليفها. شيء كالطيران هو الموت. كنت تقريباً سعيداً. الآن أظن ذلك. لم أكن أعرف الألم. ما أحسسته تلك الآونة شيء أخفّ بكثير من الألم. الألم نفسه كان فضائياً وكان حنوناً كمياه الحوض جنب قبر أمي. كل شيء يجعلني أكاد أطير. أسير وأشعر بقدمي تنفكان عن التراب وتمشيان بما يشبه الارتفاع. لم يكن الأولاد حولي هكذا. وحدي كنت هكذا. عالمي سيّار، جوّاب متحرك خفيف وعامر. ليس سواي من يملك هذا العالم. لم يكن لي أصدقاء. في الحقيقة لي صديق أو اثنان. صديق

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

من عمري تقريباً لا أعرف إذا كان حقيقياً أم أنني اخترعته. كان بالنسبة لي أكثر من صاحب. أحسبه شريكاً في أحلامي وفي أسفاري الفضائية. كان شيئاً من روحي، مثالاً أو فكرة. لا أعرف كيف افترقنا لكني بقيت أحنّ إليه وقتاً طويلاً. كنت أحنّ إلى أي شيء، فراق أي شيء، حتى ولو سيجارة، يلقيني في أبدية جدباء.

سامي صديق من عمري، زارني بعد أن شببنا، نحن الاثنين. لا أذكر كيف افترقنا. لعله نزل مع أخوته إلى بيروت. قد يكون أقام هناك في واحد من الأحياء الطرفية التي يتجمع فيها نازحو الريف. كان محشوراً في طقمه البيج المخطط بالبني، ألوان التراب التي تبقى في خيال الريفيّ الأصل. ربطة عنق ذات عقدة، تغلب آنذاك على متوسطي السن. خدّاه اكتنزا بحيث تدوّر وجهه وغلظت شفتاه وسال شارب فوقهما فيما بقيت له العينان الواسعتان المشروحتان حتى زرّي الخدين. مرّت سنين لم أره فيها. وهو جاء بزعم تجديد علاقتنا لكن قصده الحقيقي كان سامية ابنة خالي التي توارت في إحدى غرفتي النوم ورفضت أن تحملَ القهوة إليه. كل حديثه دار عن والدي وعن المكتبة التي يديرها هو وإخوته. كنت قد خرجت من فترة السرحان التي أمضيت فيها طفولتي لكن محدّث المدينة هذا لم يكن يشبه مطلقاً أيّاً من صورها الهاربة. انتظر ترحيباً آخر، ولما لم تلح له ابنة خالي اختصر زيارته ووقف مودّعاً. رافقته إلى الباب وعدت.

تحمل لي عمتي بشرى ساعة تزعم أنها وصلتها من والدي الذي أرسلها إليّ. أعرف أنها تزعم، لأنها منذ وقت قد يكون عاماً تلاحقني

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بالهدايا والرسائل التي تقول إنها مرسلة إليّ من والدي. الساعة سلّمتها لي يوم ميلادي ١٨ أيار على أنها هدية أبي لي بالمناسبة. ساعة ذهبية اللون، لكنت فضّلتها فضية لو تُرك لي الخيار. قبلها سلّمتني حقيبة يد جلدية وطقم أقلام حبر وقلادة ذهبية، بل سلمتني قرآناً ذهبياً بسلسلة لألبسه في عنقي. لم يكن أي من هذه الأغراض يهمني. لا يخطر لي أن أتجول بحقيبة، وحين فعلت ذلك فقدتها في يومين واستعصى علي أن أتذكر أين حتى حملها إليّ نادل من المقهى الذي نسيتها فيه. بعدها تركتها في البيت ولم أجازف بحملها. ملأت القلم بالحبر وجربت الكتابة به، لكنني اعتدت أقلام بيك التي سرعان ما عدت إليها تاركاً طقم الأقلام بين أغراضي، وبقيت أصادفه كلما تفقدتها حتى اختفى ولم أعرف كيف. الساعة وحدها، التي أعجبتني أرقامها النافرة، أحطتُ بها رسغي حيث تربّعت في المنتصف. أخذت أقيس بالوقت المسافات بين البيت والأماكن التي أقصدها. قلّما كنّا نتواعد، فالحياة صغيرة في البلدة لدرجة لا تسمح بأي خصوصية. لكن مع الساعة كان اكتشاف الوقت، الذي كان الأذان تجلّيه الوحيد، اكتشافه مستقلاً تقريباً عن شؤون اليوم. أنظر في ساعتي لأعرف في أي وقت نحن من النهار أو الليل، هذه المعرفة لا تتّصل غالباً بأي غرض. يكفيني أن أعرف وأخترع أسباباً لذلك. أقول في نفسي أنني سأمشي ساعة أو أقرأ ساعتين أو حتى أقيس المدة التي أستطيع خلالها أن أعزل نفسي أو أستطيع أن أركض. أستدعي الوقت فقط، وحتى أبتكره. كانت هذه ساعتي الأولى، بعدها صار هناك وقت نشرات الأخبار وبرامج التلفزيون، بل صارت هي التي تبلّغنا كم الساعة. لم

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

أعد في حاجة إلى أن أعرف الوقت من ساعتي، لذلك صرت أتجوّل بدونها، وربما انقضت أوقات طويلة لا أملك ساعة فيها.

سامي صديق طفولتي. نذهب معاً إلى الحقول وحين ندوس على شتلة كان يسمع أنينها. يعاود الدوس عليها ليتأكد من الأنين الذي سمعه. في بيته لم يكن هذا عجيباً، أمه كانت تغطّي شجرة الزيتون التي أمام المنزل كلّما اشتد البرد لتدفئها. أمه تكلّم الأشجار، تكلّم الزيتون والسروة والزنزلخت والملولة وشجرة الحامض وتدّعي أنّ لكلٍّ منها صوتاً خاصاً وأنها تعرفها من صوتها. كانت في البيت تطلب منهم أن يصغوا حين يرتفع صوت إحداها. سامي أيضاً ينقل عن أمه أنّ ثمّة أشجاراً شريرة وأخرى طيبة. شجرة التين مثلاً متكبّرة، شجرة الزيتون عابدة، شجرة الزنزلخت كذّابة. هناك قصص وراء هذه الصفات، لكن الأكيد أن هناك أشجاراً تأوي إليها الأرواح الخبيثة. لم تكن هذه القصص تخيفني، لا الأرواح ولا الأشباح ولا مخلوقات الهواء تسبّب لي فزعاً. بالعكس، كانت تواكبني في سباحتي في الفضاء. أنام، أشعر بها تدور من حولي. لم أنجح كسامي في سماع الأشجار. أحسّ فقط أنّ الصفصاف ينشر شعره على الماء، سامي يقول لي إنه يغنّي وأنا لا أصدّق، لا أتّهمه بالخبل، فأنا لشرودي وسرحاني موصوم بالتهمة نفسها. أسمع ذلك ولا أبالي، لكن سامي لا يشرد ولا يُقال عنه إنه يشرد. كان موصوفاً بقدرته على تحويل الساقية إلى أرضه وإجراء الماء بين الأثلام. كما كان الأمهر في نصب الدبق للعصافير. لا يُقال عنه إنه مخبول حتى حين يروح يروي عن الأشجار أنها تصرخ أو توشوش. قال لي مرة إن شجرة الزنزلخت الواقعة على حرف الطريق

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

إلى الساحة تولول. كانت الريح تفرّق أغصانها لكني لم أسمع ولولة. كالعادة لم أُكذّب ما سمعته. أصرّ على أنها تولول، قال إنها تحتضر. لا أحتاج إلى تصديق أمور كهذه، يكفيني أنها تطلق خيالي. لكن في اليوم الثاني، ونحن نسير معاً إلى الساحة، وجدنا الشجرة مقصوفة وحملها منكبٌّ على الأرض. مع ذلك لم أصدّق، لم أكن بحاجة إلى دليل. سباحتي في الفضاء تقبل كل شيء، ما يقع وما لا يقع، ما يوجد وما لا يوجد. لم يكن هناك فرق، ليس مهماً إلى أين تصل.

سامي لم يكن يكلّم الأشجار وحدها. كان يكلّم الحيوانات أيضاً. لديه حماره وعنزته وكلبه. يسمي حماره عنتر وعنزته سلوى وكلبه داود، يخرج غالباً بصحبة أحدها. الحمار الأكثر طاعةً وذكاءً كان رفيقه إلى أطراف البلدة. يقول له: "خذني إلى المغاريف"، أرض لأهله في خراج البلد، وينام على ظهره طول الدرب. والحمار يتحسّب من أن يوقعه، إلى أن يصل بعد ساعتين إلى المغاريف، فيقف فيها وينتظر أن يفتح سامي عينيه وينزل عن ظهره. كان يحب أن ينام على ظهر عنتر إلى أن وقع عنه ذات يوم. لقد جفل الحمار حينما التقى خنزيراً شارداً فألقى سامي على الأرض، وبقي نائماً رغم ذلك والحمار يحاول أن يوقظه، وحين فتح عينيه أخيراً وجد الحمار بجانبه، ولمّا رآه استيقظ نهق وقد سري عنه. فهم سامي ما جرى، يزعم أنه علم ذلك من نهيق الحمار، لكنّ آثار الخنزير في الحقل كانت واضحة، لقد اقتلع الشتلات المزروعة وتركها بشروشها على التراب. سامي يقول إن الحمار أخبره، لكنه مع ذلك غضب منه وأهمله أياماً كان الحمار أثناءها مغموماً يتوسّل إلى سامي أن يخرجه

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

من البيت وسامي لا يردّ، إلى أن امتنع عن الأكل يومين كاملين فأشفق عليه وخرج على ظهره إلى ساحة البلد. العنزة كانت تتدلّع. تحب كثيراً أن تلبس عقوداً في عنقها، خلاخل في أظلافها وترقص، نعم ترقص، كلما سمعت لحناً. سامي يصفّر لها فتروح ترقص. كانت مدللة البيت، ويصبر الكلب والحمار على دلعها، وهي تتحرش بهما وتتظاهر أنها تسرق طعامهما. كان الكلب والحمار يسابقانها ويمتلئ المكان بصراخ الثلاثة، نباح الكلب ونهيق الحمار وثغاء العنزة. العنزة يحلو لها أن تتحرّش بالحمار، تخطف الحشيش من أمامه وتخبئه ويدور الحمار باحثاً عنه إلى أن يجده في شق من شقوق جدار الحظيرة، وتحت خرجه وجلاله. ينهق الحمار في وجه العنزة لكنه لا يحاول أن يؤذيها، تمسكه من أظلافه فلا يلبطها. استطاع سامي أن يعقد ميثاق سلم بين حيواناته. يكفي أن يصرخ في وجه أحدها لينزوي ويحرن ويروح يحاول أن يسترضيه. وجد في يوم نظارتيه على وجه العنزة، لا يعرف كيف توصّلت العنزة إلى ذلك. بدت كما هي في صورتها في الكتب، لكن في الكتب الحمار هو الذي يرتدي نظارة، هو الذي يبدو شبيهاً بالأستاذ. وجد سامي الأمر مضحكاً وكاد يهنّئ سلوى العنزة على ما فعلت لولا أنه وجد كتابين له في الحظيرة وقد تلطّخا بالوحل. كان الأمر خطيراً إذاً ولا يستحق أن نضحك منه. وبّخ سامي العنزة وربطها يوماً كاملاً إلى الوتد وتركها تبكي، لكنه مساء اليوم نفسه وجدها تحررت من الوتد وجاءت إليه حاملةً الكتابين اللذين نسيهما في الحظيرة. سامي لا يحب الكتب لكنه لا يريد أن تغدو أوراقها عشباً للعنزة. يحب فقط أن يصنع من

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الأسلاك والقصب والعشب مظلات يرفعها في الحقل، وقد ازدحم الحقل بها وأخذت الحشرات، النمال والسقايات والأبوبريصات والعناكب تتعلّق عليها أو تسرح تحتها. سامي يحب أن يجد الأرض من تحتها تغلي بالحشرات، يحب الحشرات ويحاول أن يروّضها كما يفعل مع حيواناته، ويقول إنه ينجح في تدريبها على أن تعمل بانتظام وفي صفوف مرصوصة، وأن تتبادل العمل فتحمل السقايات قمح النمال إلى قراها، وتنقل الذباب إلى شباك العنكبوت. سامي أيضاً ينحت، فالخشب موفور وهو يعمل فيه بسكينه. إنه ينحت غالباً وجوهاً يعرفها، وجهه هو ووجه أبيه وأمه ووجوه حيواناته. ينحت وجهاً لأمه ويتخيّل أنه هكذا صنع اثنين منها، وينحت عنزته في الخشب فيصبح له اثنتان منها، ويصنع وجهاً لحماره يصفّه جنبه ليغدو له اثنان من حماره. أما الذي لم ينحت له وجهاً فهو أحب حيواناته إليه، الكلب داود الذي سمّاه على اسم جده. لم يرد أن يكون له اثنان منه، يكفيه واحد. سامي يقول إن الأشخاص ومنحوتاتهم يتشابهون، ويزدادون تشابهاً، كلّما تعاشروا زادوا قرباً بعضهم من بعض. سامي يضعهم أمام بعضهم بعضاً ليتعلّموا من بعضهم وليزدادوا شبهاً. إنّ شيئاً من الشخص أو الحيوان ينتقل إلى شبيهه أكثر فأكثر. يقول سامي إنه يزيد في عمره ويُكسبه صفات الآخر. فالمنحوتة من خشب التين تُكسب الشخص الذي تمثّله كبرياء الشجرة وحنوّها، والمنحوت من شجر السرو يُكسب شبيهه صلابته ورقّته. كان سامي يختار لكل شخص وحيوان شجرته الخاصة. فلمّا كان النحت شبيهاً بما يمثّله، لا يهتم سامي بأن ينقل الوجوه والملامح كما هي. يهتم

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

أولاً بالشجرة ولا يهتم بأن يكون الشبه حقيقياً. يجد وجوه شبه لا تخطر لسواه لكن سرعان ما تظهر وجاهتها. نحت لوجهي حذاءً مقصّباً وسرعان ما تبيّنتُ أنه، على نحو ما، يشبهني، بل يقلّدني. نحت وجه أمه صَدَفةً، وشعرت فوراً أنّ وجه أمه موجود بطريقة ما فيها. أراد أن يكون وجه أبيه غليوناً، وظهر بالفعل في تعاريج الغليون ودوائره. كان يصنع لكل منحوتة مظلّتها الخاصة. المظلة التي تبدو أحياناً مجنّحة، وتبدو أحياناً أخرى محجّبة، وتبدو مقفلة، وتبدو عائمة، وتبدو مشرعة، وتبدو مقطّعة، وتبدو مرتخية، وتبدو مشدودة، وتبدو شفافة، وتبدو كثيفة، وتبدو غليظة أو رقيقة، وكل مظلة تؤوي واحدة أو أكثر من منحوتاته.

كان سامي يعيش بين مظلاته ومنحوتاته وحيواناته ولا أدري كيف أضافني إلى عالمه، أو كيف أضفته إلى عالمي. لا أتذكر في أي مكان وأي مناسبة كان لقاؤنا الأول، بل لا أذكر أنه كان لنا لقاء أول. وجدته أمامي كما لو كان دائماً هناك، وكان علي فقط أن أنتبه له لأشعر أنه من زمن لا أعرفه يسكنني. كان في داخلي وعندما صادفته صعقت كأنني التقيت بنفسي، أو كأنني عثرت فجأةً على ما لم أكن أدري أنني أبحث عنه. حيوانات سامي ومنحوتاته ومظلاته هي كل ما أريده لسرحاني. هذه الأشياء كانت متنقلة ومتحولة لدرجة تسبق ذهولي. سامي واحدٌ منها على كل حال. شعره المسترسل المفتّل يشبه عنزته، لكن وجهه الأفطس وشفتيه الحمراوين وأسنانه الصفر تشبه كلبه. مظلاته متحولة دائماً ولا تحيط بها نظرة واحدة. منحوتاته ألغاز تقترح كل مرة فكرةً جديدة. أزوره فأجد ثالوثه الحيواني مصطفّاً

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

في الشمس، وأجده وهو يضيف قشّاً وقماشاً وريشاً وأسلاكاً إلى مظلاته. كان هذا الصمت الغامر والكثيف يسمح لي أن أقلّب صوراً وأسراراً وفضاءات. الأشياء الصامتة كانت تفيض كل لحظة بمزيد من المعاني. الحمار الذي قلّما ينهق ينتقل وحده تحت ضوء القمر في أزقّة البلدة، قلّما يحدث صدى لمروره. الكلب، الذي قلّما ينبح، يرابط في جانب من الحقل كأنه مقيّد إليه، والعنزة تبقى ملتفّةً على عامود يحمل السقيفة التي امتدت فوقها الدالية. كنت أتخيّل العنزة سابحةً في الفضاء تقذف النار من فمها كما يفعل التنّين. أما الكلب فأجده تضخّم كثيراً وتحجّر وجلس كالرصد فوق الكنوز والأسرار ينتظر أن يُدقّ الجرس فيتحرر من حَجَريّته. الحمار أراه طائراً يقذف النجوم بحافره ويلتهمها. أما سامي فأراه في آنٍ واحد عنزةً وكلباً وحماراً، إنه مركّب من هذه جميعها وفيه أرواحها كلها. إن له ثلاثة أرواح، وهو أحياناً عنزة وأحياناً أخرى حمار وفي غيرها كلب. أراه أحياناً بجذع حمار ورأس كلب أو رأس عنزة. كان بذلك يبدو مستعداً ليكون أي شيء، جاهزاً لأن يكون حتى شجرةً أو جداراً أو شبحاً. ربما كانت صداقتنا من هنا. لا أعرف إذا كانت الصداقة اسماً مناسباً لعلاقتنا، كانت لعبة كبيرة نجد، نحن الاثنان، نفسينا فيها. سامي يصنع أشياءً لا يتكلم كثيراً عنها، يصنعها لأنه بارع ولأن في يديه القدرة على صنعها. يجد مواداً فيخترع لها أشياءً ويركّبها منها. لم يكن يريد أن يصنع أعاجيب. الناس، على كل حال، لا يرونها كذلك. ما يُصنع باليد، حتى لو كان بلا غرض، يبقى بالنسبة لهم معقولاً. لم يكونوا يرون سامي غريباً. لا يفهمون مظلاته ولا منحوتاته لكنه يبقى

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بالنسبة لهم صانعاً وهم يحترمون الصنّاع. أنا الغريب بالنسبة لهم لأني لا أصنع شيئاً، أشرد فقط وأتكلّم وهم حذرون من الكلام، بل يخافون من الكلام، يخافون بشكل خاص من الكلام الذي لا غرض له، يعتبرونه مؤذياً أو قابلاً للإيذاء. الصور التي تأتي بالشرود خطرة أكثر من الكلمات، هذه أمور لا نعرف متى يصبح لها هدف ومتى تصبح مؤذية، متى تصبح قوية كالسحر أو تصير سحراً. الأشياء التي يصنعها سامي قوتها في صناعتها، أما أنا فشرودي الطويل وحده، ولو ظهر بلا قوة، يمكن أن يخيف. الصور والكلمات لا يمكن أن نحصرها في شيء، لا يمكن أن نعرف لها نهايات أو حدوداً، إنها متحولة متغيرة سيّارة وفي وقت ما يمكن أن تصيراً شراً. لم يكن سامي مجنوناً في نظر أحد، أما أنا فكنت في نظر كثيرين مخبولاً. لم يكن سامي بلا جدوى، إنّ له يدين يستعملهما على هواه، أما أنا فلي رأس لا يعرف أحد إلى أين يصل. سامي وحده لم يعترض على شرودي، في الواقع لم ينتبه له. كان مشغولاً للغاية لدرجة أنه لا يلاحظ. كان يعمل وأنا أشرد. نحن الاثنين كنا نعمل، كلٌّ على طريقته. عالم سامي يناسب شرودي، فيه أقدر أن أسترسل، فيه أقدر أن أسرح بلا عوائق. منحوتاته ومظلاته تساعدني، أحياناً أنطلق منها. أحياناً تكون صوري الأولى واروح أبني عليها، وتأخذني الصور إلى حيث تغدو خطرة عليّ. عندئذ أصحو على الحافة وأتراجع إلى البدايات، لكني أيضاً أخترع صوراً على طريق العودة. لا أتكلم أثناء ذلك إذ لا أجد كلاماً مناسباً. للصور نكهات وملامس وهي أحياناً تؤلم جسدياً، كما أنها في أحيان تثير شيئاً كالغثيان، لكنها بلا كلام. إنها تبدأ حين ينقطع

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الكلام، وحين لا حاجة إليه، لكن قد يصاحبها كلام ليس لها، هو الآخر، مثلها، بلا معنى، حتى بالنسبة لصاحبه. كلام بلا معنى وصور لها طعم ورائحة وملامس وأوجاع. أسند ظهري إلى جدار بيت سامي وأروح أعمل، أؤلّف وأمشي وراء ما أؤلّفه، أنتقل كالنسيم خلفه، وألتقط كلمات تأتيني من بعيد ولا أفهم كثيراً ما أصنعه. لست بحاجة إلى فهمه، إنه عمل أستهلك نفسي فيه وأخرج منه منهكاً. أجد سامي فرغ من شغله فأجلس جنبه وأحاول أن أسترجع صوراً وكلاماً مما كنت فيه لكني في الغالب لا أجد، وإذا وجدت فنثرات قليلة. لكن سامي لا ينتظر مني شيئاً مع أنه يصغي جيداً. أظنه يلاحظ أن ما أقوله شبيه بما تصنعه يداه. الكلام يتكوّن كما لو كان شيئاً، يبدأ من لا شيء، لكن كلمة على كلمة، مثل الأسلاك على الورق والقش، يصبح عملاً. يبدأ من لا شيء لكنه يصبح عملاً. يصبح بريئاً كالعمل، واضحاً وجديراً كالعمل.

كان سامي يجلس جنبي وبين يديه مظلة بالكاد بدأ فيها. أقول له: "شو عمتعمل؟" لكن هذا هو بالضبط السؤال الكبير الذي لا يعرف جواباً عليه. يشير إلى المظلة ويصادف أن يوجّه إصبعه إلى بقعة مقشّشة. أقول له: "متل زبد الموج"، يبتسم لي فأردف: "متل النَفَس" يسمع كلمتي ويعود يوجّه إصبعه إلى القشّ كأنه يلصق الكلمة عليه... "مش باقي شيء، بس صَدَف..."، تتّسع عيناه وأنا أجد فوراً الكلمة التي أنتظرها... "مثل الأيام الناقصة..." تقع الكلمة تماماً في محلّها، كأنها نزلت على القشّ. أقول: "بس قش" وأردف: "يمكن ذكريات، يمكن بقايا"، يرفع حاجبيه ويوجّه إصبعه هذه المرة

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

إلى قطعة قماش زرقاء. وأنا في هذه اللحظة أنظر إلى العمق ويدور رأسي وأقول الكلمة التي استخلصتها من بين الأسلاك "بحر". يشير سامي إلى السلك وكأنه وجد اسماً له. إنه الماء. أقول أنا دفعةً واحدة "سَفَر"، يرفع سامي رأسه وكأنه صحا من كبوة. تتسارع إشاراته كما تتسارع كلماتي. إنه السفر، على الطريق سنجد كل شيء. الأوراق والأخشاب وقطع القماش والنباتات كل هذه تمر الآن، وقد وجدت أسماء: العاصفة، الساعات، الفراغ، العدم، الشراع، الجزيرة. استمرّ في الكلام أركّب منه جملاً تامّة. بعد "السفر" ينفتح القول وتتسارع الأشياء ويمرق الشراع خاطفاً، وتغدو الكلمات مشحونةً محمّلةً بالأشياء. وسامي منتبه لما يحدث، يقظ تماماً، تتغير إماراته عند كل كلمة كأنه يطبخها في نفسه ويرتّبها جنب أخواتها. كأنه يدير الآن مظلّةً من كلام. وحين نكون قطعنا مسافةً من الكلام يهدأ تماماً ويتوقف عن الإشارات، فأفهم أن كل شيء قد ترتّب وأن المظلة انتهت، وليس علينا بعد ذلك إلا أن نتأمل في الفراغ الذي تركته لنا هذه الخاتمة.

في بيتنا، أقصد بيت خالي، كنا وحدنا نعتبر سامي مخبولاً. لم نكن مزارعين. جدي كان قارئاً، يقرأ القرآن لأشخاص ينيبونه عنهم مقابل مبلغ أو يقرأه على قبور المتوفين حديثاً. كان قارئاً وليس مزارعاً. قطع الأرض التي يملكها يؤجّرها لمُرابع، ولم يلبث أن خسر أكثرها، إذ باعها له. اقتطع من منزله زاوية جعلها دكاناً. جدي لم يكن يقرأ القرآن وحده، كان يراسل مجلتَي **الهلال** و**المقتطف** ويقتني كتباً تركها لنا في صندوق خشبي. كنا، خالي وأبناءه وأنا، ننظر فيها ونتحاور

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

حولها ونزيد عليها كتباً أخرى. نحن أيضاً كنّا قرّاءً لا مزارعين، لذا لم يكن شغل سامي الأشياء بيديه يمنعنا عن أن نعتبره مخبولاً. أنا، رغم صداقتي له، لم أكن أنفي ذلك. كان يتسرّب لي أن الناس تعتبرني مخبولاً ولا أبالي. لم أنفِ الخبل عن سامي. لم أفهم لماذا لا يكون مخبولاً. لم أزن جيداً تهمة الخبل ضدي أو ضد سامي. سامي كان عند الناس فناناً، لم يفهم أحد مظلاته ومنحوتاته لكنها كانت صنع يديه، وكانت لذلك محترمة. كونهم لا يفهمونها يزيدها احتراماً. ثم إن سامي ليس ساهياً، بل هو متأهّب لأيّ حركة أو سؤال. فضلاً عن ذلك هو متقن لعمله، يشتل ويسقي ويطعّم، متقن لدرجة أن الناس يستشيرونه في أعمالهم وبعضهم يستأجره للقيام بها. خالي كان يستأجره لزراعة قطعة الأرض الوحيدة التي ورثها عن أبيه، ويمتدح دائماً انتظامه واجتهاده وإتقانه لعمله.

كان سامي مصطفّاً مع حيواناته الثلاثة أمام باب خالي حين خرجت سامية ابنة خالي من البوابة وألقت نظرة نفّاذة على سامي الذي بقي جامداً جنب حيواناته. لا أعرف كيف خطر لي أنه كان ينتظر هذه النظرة من عينَي سامية الواسعتين النفاذتين. وجه سامية الملموم وعيناها المشرئبّتان بحاجبين مقوّسين وأنفها المنمنم وفمها المضموم وجسدها الصغير تجعلها جميلة وأليفة كاللعبة. منذ أيام وسامي يفتقدني في بيت خالي ودائماً بصحبة حيواناته، كان يفعل ذلك من قبل ولكن ليس بالانتظام الذي اعتمده في الأسابيع الثلاثة الأخيرة. لست وحدي الذي لاحظ ذلك، أمور كهذه هي الوحيدة المتروكة لملاحظتنا هذه. أظن أن سامية شعرت أنها المقصودة

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بذلك. لا أعرف إذا كانت تتعمّد أن تخرج أمامه من البيت، تبدو كذلك وكأنها تهرب من وجهه، لكنها أيضاً تظهر وكأنها تخرج لتلقي نظرة عليه. لست الوحيد الذي لاحظ، زوجة خالي ربيعة وربما خالي نفسه لاحظ. كان سامي بحيواناته ومنحوتاته وشعره الطويل المفتول بالنسبة لهم ليس أكثر من مهرّج. اجتهاده في عمله لم يكن كافياً ليجعله في نظرهم طبيعياً. كانت نظرة سامية إليه غاضبة، لكنها كانت نظرة إليه. النظرات هي عالم سامي القليل الكلام بل العديم الكلام غالباً. يكلّم الشجرات والحيوانات بنظره ويتلقّى نظراتها. كان اسم سامي، الذي هو تقريباً اسمها، يغضبها كأنه يورّطها في ما لا تريده، يفرض عليها علاقة ما بهذا الراعي الذي لا يحسن أن يسوّي شعره. لم يكن صمت سامي، المقدَّر كثيراً في البلدة، بالنسبة لعائلة خالي سوى بكم حيواني. حيوانات سامي هي بالتأكيد عائلته وهو يشبهها أكثر مما يشبه أبويه. حين أتكلّم عن سامي كفنان تضحك سامية ويضحكون جميعاً مني. لم تخلُ البلدة من فنانين، الفنان بالنسبة لهم هو الصميلي الذي زيّن سقوف المنازل وجوانبها بصور النمور التي تفترس غزلاناً وبإطارات الأزهار والزخارف. الفنان بالنسبة لهم هو النقّاش الذي يحفر على شواهد الأضرحة، والفنان هو الشاعر الذي ينظم تواريخ الموتى. ليس بالطبع من يتنقّل بصحبة الحيوانات يبني مظلات أو يحفر طلاسم على الخشب. كان هذا بالنسبة لهم هو الخبل، وسامية، التي كان اسمها يحرجها، لم تكن ترى فيه فناناً. عائلة خالي لا تتكتّم على رأيها في سامي، تعلنه رغم أنه غير مفهوم من أكثر الناس. ما الذي يهم في أن يكون الواحد فناناً،

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

يكفي أن يكون مجتهداً في عمله، وسامي مثلٌ في هذا المجال. لا أحد يرى عيباً في صحبة الحيوانات. كانت هذه ملكة خاصة، والحمار والمعزاة والكلب حيوانات نبيلة ومحبوبة. كانت سامية بشكل خاص تكثر من الكلام في هذا الموضوع، كأنها بذلك تدافع ضد خطر غير منظور، أو كأنها تتنصّل من ريبة خفية. كوني ابن خالها ولي صلة بسامي كان حجة لا أكثر. ثمة دافع أكبر من ذلك للكلام بهذا الشكل. المهم أن الكلام وصل بالتأكيد إلى سامي. لا أعرف كيف أستقبله، هو الشخص الذي توحي قلة كلامه بأنه ليس أفضل منه في السمع، وأن الكلام كله لا يعني له كثيراً.

ظل سامي يأتي عصراً إلى بيت خالي، بيتي، وينتظرني مع حيواناته على باب (بوابة) المنزل، ثم أخذ يأتي وفي صحبته حيوان واحد هو غالباً الكلب، قبل أن يتخلص منه ويصير يأتي وحده. أخوه الأكبر عامر انتقل إلى بيروت، وكان هناك كلام بأن أخاه الثاني ينوي أيضاً الانتقال إلى بيروت. في هذه الأثناء بدأت أشعر أن سامي أيضاً يتململ. أهمل مظلاته وترك بعضها يتساقط أمام الأشجار. حيواناته صرنا نصادفها سارحةً في الطرق. لوحاته صارت مرصوفة بعضها فوق بعض. لم يقل لي سامي شيئاً ولم أتوقع منه أن يقول، لكن الذي كدت لا أصدقه هو الخبر الذي جاء بأن سامي ذهب مع أخيه الأصغر عدنان إلى بيروت.

قالت سامية "روحة بلا رجعة" كانت بالتأكيد ترفع عن نفسها مسؤولية ما عن رحيله، رغم أن أحداً لم يخطر له أن يسألها عن ذلك. كان من المعتاد أن يذهب الفتيان ما أن يتفتح شبابهم إلى بيروت. ليس

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

سامي استثناءً، حان رحيله ورحل. كان معروفاً إلى أين سيذهب في بيروت: "كمب شرشبوك" حيث يقيم النازحون من البلدة وحيث سبق أن أقام عامر. بالطبع لم يعطوا اعتباراً لسرحان حيوانات سامي ولم ينتبهوا إلى أن العواصف أخذت تمزّق مظلاته. أما أنا فشعرت أن فضاء أحلام يقظتي يتّسع أو ينقص. لم يكن ما شعرته شوقاً، كنت غير قادر على أن أتبيّنه. لا أعرف حتى ما هو شعوري عندما أصادف حماره أو كلبه في الطريق، كانت الحيوانات تقترب وكأنها تعرف شعورها أكثر مني. إحساس جامد يساورني عندما أرى مظلاته وقد تخربطت، لكني أقف وأتأمل فيها جيداً. حتى الأشجار، الأشجار يخيّل لي أنها نقصت شيئاً بغياب سامي. لم أفكر في أن ألحق سامي بزيارة إلى بيروت التي ليست بعيدة، كان ذلك أشبه بشراكة انفصمت. وحين نزلت إلى بيروت لحضور فيلم "بسايكو" لهتشكوك، لم أفكّر في سامي ولم أحاول الاتصال به.

غرق سامي في بيروت. أشهر مضت ولم نرَ له وجهاً. جاء أخواه عامر وعدنان مراراً إلى البلدة وهو لم يأت. حلّ عيد الفطر وبعده عيد الأضحى وحضر النازحون وملأوا البلدة وهو لم يأت. عامر الذي كان واقفاً في الساحة أمام كنيسة الموارنة تقدم نحوي بوجهه الطويل وساقيه المديدتين وبادرني، قبل أن أسأل، بالكلام عن سامي. قال إنه أذهلهم بطاقته على الشغل "إذا حطّ راسو بشي ما بيوقف حتى يخلّصو... ليل ونهار بالشغل. إلك ألله ما بيتعب..." أراح رجله ذات الحذاء العريض ومال قليلاً وهو يخبرني "بنقلّو ارتاح وهوّي إذا في كتاب بآخر الدنيا بيروح بجيبوا" كانت تجارة الكتب هي

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الشغل الغالب على أهل البلدة في بيروت، يشترون كتباً من مكتبات قديمة في المنازل ويبيعونها لمهتمين يطلبونها لمتعتهم أو شغلهم. سامي كان يقصد هذه المكتبات المدفونة في بيوت علماء ومطّلعين، لم يكن أبناؤهم أهل قراءة. كل كتاب من هذه الكتب عرف رحلة شاقة مذ كان كنزاً في البيت إلى أن صار مهملاً، وبيع بسعر بخس واصلاً إلى نهايته المؤسفة. هذه الكتب تعود كنوزاً في بيوت محققين يبذلون فيها ضوء عيونهم. سامي كان أقدر على اكتشاف هذه الكنوز ويملك أكثر من الجميع موهبة تمييزها، ويعرف بالحدس من هم المهتمون بها. هذا العمل شغفه بحيث لا يرتاح ما دام هناك كتب يشتريها وكتب يصرفها. عامر الذي سبق سامي إلى هذه المهنة كان مبهوراً به. ما لبثت أن فهمت أن البلدة التي يشترك أبناؤها في ذات المهنة كان تغلي بأخبار سامي.

أخيراً فوجئت بسامي يدخل عليّ وأنا في بيت خالي. سأل عني ودخل، لم ينتظرني على الباب. كان ذلك يوم عيد الميلاد. دخل وهو يفحص المكان بعينيه. كان شعره قصيراً، حلقه في الغالب منذ قليل، لم يعد مفتولاً ومسترسلاً. كانت ذقنه ناعمة محلوقة في اليوم نفسه. ارتدى، على الموضة السائدة آنذاك، سهاريان كحلياً. كان الطقس غائماً والصالون حيث دخل هربت منه الشمس وتركتني جالساً في ظل ثقيل، لم أنتبه له إلا حين دخل سامي فذهبت وكبست على زر الكهرباء. جلس سامي قريباً مني، لم يتكلم كلانا وبدا كأننا لن نتكلم. خطر لي ما قاله عامر عنه فسألته:

– بيقولو إنك قدّ حالك بالشغل. وقتك كلّو بالشغل وموفّق بشغلك.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لم يجب فوراً لكنه ابتسم، سؤالي سرّه. تمهّل قليلاً ثم اندفع بكلامٍ لاهث روى فيه كيف يصله خبر كتاب، يسمّيه لي، فيذهب من فوره. روى لي كيف يساوم كيف يخفي عن صاحب الكتاب قيمته وكيف يجد فوراً مشترياً. عنده قائمة بهؤلاء المهتمين، سمّى لي بعضهم. يتكلم ويصبح حديثه أقل تقطعاً ولهاثاً. يروي ويضحك وتبرق عيناه ويقوى صوته وهو يوعز بشطارته. تدفق في حديثه وطال، بدا لي كأنه استعد لذلك وأنه جاء بالضبط من أجله. كان أحياناً يفحص الغرفة بعينيه، ويسرق نظرة إلى الباب. عادت الشمس فتحررنا من وطأة الظل، جعل هذا الجلسة أسلس. أنا الذي استمعت طويلاً استلمتُ الكلام، حدثته عن حيواناته الشاردة، لكن كأنه امتعض، ثنى يده وأدارها للخلف. لم يُبدِ ترحيباً أفضل حين تكلمت عن مظلاته المخربة أو منحوتاته. كان دائماً يلوي يده إلى الخلف ويطرد الهواء براحته. قال "كبرنا على هيك" وعاد إلى الحديث عن الكتب، كأن حياته لا تزيد عن الشهور التي أمضاها في هذه المهة. قال بحزم إنه سيؤسس مكتبة وسيفعل كذا وكذا. كان المستقبل وحده أمام عينيه. أنا المستقبل غائم أمامي. الزمن لا أستطيع أن أشقّه ببصري. في طفولتي كنت أحسب أننا نطير في الزمن وغير الزمن، لكني الآن أشعر أنني أترهّل وبالكاد أسير. لم أبلغ العشرين لكني شبعت أحلاماً. انقلب شرودي إلى مللٍ فظيع. غادرني سامي ذلك اليوم شبه خائب، لا أعرف ماذا كان ينتظر مني. كونه لم يلمح سامية خيّبه بالتأكيد. انقطع سنيناً عني. سنتان لم أره فيهما. كان يعود إلى البلدة ولكنه لا يعرج لزيارتي. في استطاعتي أن أمشي إلى بيته، لكني لم أملك هذا

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الكرم. شعرت منذ رأيته آخر مرة أننا من عمرين مختلفين. كنا هائمين وهو وجد نفسه، لكنه صار غليظاً ككل هؤلاء الذين يلقون أنفسهم على أول ما يصادفونه. لقد وجد نفسه لكنه قطع خطوات قصيرة. لم أكن طموحاً، لكن الدكان لا يحتاج إلى طموح. لم يكن سامي بحاجة إلى كل تلك الموهبة ليصير صاحب دكان. أطلت الحديث عن سامي، ربما لأنه رجع يحكي بسامية التي رفضته في المرة الأولى. سامية بدأت تكبر في السن بينما نجاح سامي في عمله جعل أهلها يفكرون به كزوج مناسب لها، وهي بدأت تعيد النظر في رأيها. أنا لا أجدهما متناسبين لكني لا أثق كثيراً بحساباتي في شؤون عملية، لهذا لا أجازف برأيي، رغم أن سامية تريدني بقوة أن أنصحها. أظن أنك أقدر مني على ذلك. أنت موافق وهذا يكفي الآن.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

من غسّان إلى فؤاد

أنا الآن أقل خوفاً على سامية. خطبتها لسامي تظهر مع الوقت مناسبة. أنت تعرف أنني التحقت ببيتكم بعد أن تجمّع أولاد عمتي بشرى ضدي. ليسوا وحدهم، لكنهم ضمّوا إليهم أولاد الجيران. كانت عمتي تجدني في الشارع بعد أن طردوني في غيابها، أو تجدني وقد أقفلوا علي باب الغرفة وحبسوني فيها، أو تجدني مربوطاً إلى الشبّاك وقد حُظر علي أن أتحرك من مكاني. كانت لي ميزة اليتيم، وهي ميزة جعلتهم يمقتونني. جمعتهم عمتي، وهي تحضنني بذراعها، وقالت لهم إنني يتيم وينبغي أن يشفقوا علي. بالتأكيد أحرجهم هذا، لم يعرفوا كيف يشفقون على يتيم. تصرّفتُ وكأن لي حقاً عليهم، توقعت أن أكون مدللاً بينهم. زادهم هذا حرجاً. راعوني في البداية لكن بتشوّش وغموض، كانوا يخافون أن أبكي فيجلب بكائي عمتي، لكن هذا الاضطراب زال مع أول ضربة تلقيتها من كبيرهم عماد. ضربني بدون أن يقصد، عاملني كما يعامل إخوته الذين ليسوا يتامى، لكن هذه الضربة أخرجت الآخرين من حرجهم، لقد عرفوا الآن ماذا يفعلون، أن يضربوني. واحد بعد الآخر. جرّبوا ذلك. بعد ذلك

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

صارت هذه لعبتهم، لقد وجدوا هدفاً، وأنا فوجئت وأجبت بالمثل. ما دام أني ضُربت فلم أعد يتيماً. لقد قبلت اللعبة واشتركت فيها. كانوا كثرة ومعهم أحياناً أولاد الجيران والجميع وجدوا لعبةً وأخذوا يخترعون فيها. لم تنفع الشكاوى، كنت بالشكوى أغدو شريكاً أكثر في اللعبة وأستحق أن أعامل كطرف. عمتي كانت تدافع عني. أثمر دفاعها في البداية، لكن كبيرهم عماد كان يجد دائماً طريقة للرد. أنا نفسي حين كنت أجدها تعاقبهم أخاف من العاقبة وأعرف أنني سأدفع الثمن. لهذا رحّبت عمتي بشرى حين اقترح أبوك أن أنتقل إلى بيتكم.

وصلتُ مرضوضاً وفزعان، لكن سامية فرحت بأن شخصاً جيداً ينضم إلى العائلة، ربما لأن وقع موت أمي في بيتكم كان غيره في بيوت أعمامي. كنت في عمر سامية وسامية تريد أخاً في عمرها. كانت ليلتي الأولى مميزة. أصرّت سامية على أن أقضي ليلتي الأولى في سريرها وأنت كنت سعيداً بأن العدد بلغ ثلاثة، ومع الثلاثة يمكن ابتكار عدد أكثر بكثير من الألعاب. لا بد أنك لم تقبل بسهولة وجود ذكر جديد، ويفوقك عمراً، في البيت. لكن سامية التي كانت تقودنا نجحت في أن تجعل اللعبة متوازنة. سامية أحبت بالتأكيد أن تكون الأخت الكبرى لكلينا. أشبهت سامية أمها ربيعة التي كانت أقرب صديقة لأمي، وهي أول من فكّر في أن أنتقل إلى بيتكم. لقد ربّتني بالعاطفة التي تحملها لأمي، وحين صرت في بيتكم فإن اليتيم الذي كنته أصبح في رعاية الجميع، الذين لم يجدوا في ذلك إلا نقصاً يستحق فعلاً الشفقة. كانت سامية وبعدها أنت تجدان أن عليكما

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أن تتباريا في مراعاتي. وأنا، الذي خرجت مرعوباً من صفعات أولاد عمتي، شعرت فوراً بالفرق، وتمالكت بسرعة نفسي وصرت أتصرف برغبة في أن أردّ الدين الذي أعرف الآن مقداره ومعناه. كانت سامية تنتظرني حتى أعود لتمسكني من يدي وتخبرني ماذا حدث لها في مدرستها، وماذا أعدّت لنا نحن الثلاثة لبقية اليوم. تسألنا ماذا نريد، وحين لا نتوافق أنا وأنت على رأي، وينشب بيننا خلاف، تقدر على أن تقرّب المسافة، تاركةً لنا نحن أن نقرّر من دونها. هي، التي كانت تقريباً بلا رغبة، تقبل، بدون أي امتعاض، ما نريده نحن. أذكر كيف حبست نفسي في الغرفة حين نلت علامات سيئة، رفضت أن آكل وعاقبت نفسي بالجلوس في الظلام. لكني سمعت الباب يفتح على مهل وحفيف أقدام تقترب مني وصينية عليها سندويشات. لم تفعل سوى أن تناولت إحداها وجلست بجانبي تاركةً الصينية على السرير. كانت تجرّ في قدميها فردتين مختلفتين، وحين انتبهت إلى ذلك نظرت إليّ وضحكت. كنتَ أصغرنا وبالتدريج صرت أحوجنا إلى العطف ولم يعد يتمي امتيازاً، ضاع بيننا نحن الثلاثة. وحين بدأتَ تهمل دروسك كنت أنا وسامية نغطّي عليك ونفرض عليك الجلوس للدرس، لكن ذلك لم ينفع. لم تعد عندك أي رغبة وبدأت تكذب حتى علينا، بدأت تهرب من المدرسة ولم نعد مع الوقت ننوهل؟ من ذلك وتركناك تفعل، إلى أن اكتشف أهلك ذلك فنقلوك إلى حانوت نجار لتتعلم مهنة. أظن حان الوقت لأقول إننا أخطأنا حين اعتبرنا ذلك نقصاً في الذكاء. ليس النجاح في المدرسة كافياً للدلالة على أننا نملك فكراً، حتى ولا الطلاقة في الكلام تعني ذلك. لستَ قارئاً مثابراً

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ولا متكلّماً بارعاً ولا قلقاً، لكنك بالتأكيد تملك فكراً كما تملك، وربما أكثر من أي واحد فينا، كرماً خاصاً بالذين لا يخافون من الآخرين، ولا يجدون صعوبة في التنازل عن أنفسهم. أذكر أيضاً أنك قبلتني فوراً أخاً أكبر، رغم أنني جئتكم من الخارج. أذكر أنك حين عملت في النجارة، وصارت لك جراية أسبوعية من صاحب العمل، أخذت تعطينا، أنا وسامية، من خرجيّتك. لم تجعلك مهنة صبي النجّار تشعر بفظاظة تجاهنا، نحن الذين بقينا نتابع دراستنا التي هي عند الناس أرفع من تعلّم المهنة. الآن أنتبه لذلك وكان علي أن أنتبه له في حينه، عندما كنتُ أراك مجرد فاشل. كنت أيضاً صاحب وسامة أفتقدها أنا، وأظن أن طلاقتي في الكلام تجعلني جميلاً. وطالما كرهت وجهي المستطيل بملامحه المتحجّرة عندما أراه في المرآة رغم أن كثيرين يجدون فيها جمالاً رجولياً. أعزّي نفسي بأن النعومة للفاشلين الذين ليس عندهم سواها. لا أعرف من أين جاءني أن الكلام هو معيار القيمة. كنت طلقاً ومتكلماً، لكني في حقيقة الأمر لم أكن سوى ثرثار، لا أمنع نفسي من قول كلام لمّاع قيمته في تكراره وليس جديداً ولا نافذاً. أجد باستمرار فائضاً منه ورصيداً جاهزاً، أستعمله مع استمراء لنطقه وتلذّذ بإخراجه. اليوم قلّما يهمّني هؤلاء الحكواتية الذين رياضتهم الكلام، قلّما أجد كلاماً فاصلاً لأقوله أو على الأقل كلاماً وازناً. حين أتكلم ينضب الكلام في فمي بسرعة وأنتهي في وقت قصير من تركيبه. أمتنع عن الكلام أحياناً كثيرة، حتى لو وُجد. أرى الآخرين يتكلمون فقط لملء الوقت، إنها طريقة فقط لإحراقه. أحزن عندما أفكر أننا لا نفعل سوى إحراق الوقت، أي إحراق الحياة

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بالتالي. أحزن عندما يتراءى لي أننا هكذا نحرق أعمارنا. أظن أن الكلام هو نوع من التحايل، وأشعر أن لا قيمة له خارج ذلك، حتى إنني أتوصّل أحياناً لاحتقاره، واحتقار نفسي بسببه. أظن أن الكتابة هي هكذا أفضل، لأننا نفعلها وحيدين، ولأننا نزنها قبل ذلك، لكنها نمط أكثر اعتباراً في تمضية الوقت وبالتالي إهداره. نمط أكثر قيمةً لأنه يكلّف أكثر، لكن قيمته اجتماعية فحسب. لا يمكننا مع ذلك أن نعفيه من التظاهر والتحايل واللعب. ينبغي أن نجد طريقة ندّخر فيها الوقت أو ننفقه بحساب، طريقة يكون فيها للوقت عائد أعلى ثمناً منه. مثل هذه الطريقة لم توجد ولن توجد. الذكريات ليست ثمناً مناسباً للحياة، إنها فقط من رواسبها.

أظن أنني هكذا أحزنك. في الحقيقة أنا أحزن نفسي. أنت، أظن أنك تعرف أكثر عن المتعة. أنت تقضي أوقاتك. الجمع مناسب هنا، تقضيها بالمزاح. تحرقها بدون أن تمرّ على جسمك، وبدون أن تترك رواسب ثقيلة. ليست لي هذه الموهبة، لي فقط قدرة على السخرية التي ليست هنا سوى لعب بالمترسّبات. أنت موهوب، الموهوبون تخطفهم موهبتهم، إنها تسليهم عن كل شيء آخر. موهبة المزاح هي ابتكار طريقة أفضل لسحر الوقت، لجعله عجائبياً مسحوراً. أنت تقدر على ذلك، لم نكتشف إلا حين كبرنا. لقد مضى زمن طويل وأنت لا تكون أنت معنا، جميع الآخرين يعرفونك أفضل ونحن من لا يعرفونك كما أنت. كم علاقات الأخوة قاسية ومرائية هكذا، لا يعرف الأخوة عن بعضهم بعضاً الكثير. في الغالب لا تجعلهم حياتهم المشتركة قريبين جداً. يروعنا أحياناً جهلهم الكامل ببعضهم البعض.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

حين سافرتَ بدأت تصل إلي أخبار عنك، طرائف عنك لم أكن أظن أنك قادر عليها. لقد وصلتني أخبارك من بعيد فيما كنت أمامي طوال الوقت، لم يخطر لي أنني أعيش مع واحدٍ تتناقل البلدة كلها طرائفه. حكوا لي حكاية الأعمى الذي بتَّ في فراشه وظل طوال الوقت يظنّك هو. عرفت من الناس أنك تحب الغناء وتملك صوتاً جميلاً، كما عرفت منهم أيضاً حكاية الفنانة التي علقت بك. هذه قصص لم أكن أظن أنك تفعلها، لقد كنت شخصاً آخر خارج المنزل. كنت أنت أكثر خارج المنزل، فيما كنا نحسب أننا لا نحتاج إلى معرفتك ما دمت واحداً منا، أو نحسب أننا نعرفك أكثر من نفسك، ونروح ننصحك لكي لا تقع في شر نفسك. سامية الحزينة جداً لفراقك كانت أكثرنا تفاجؤاً، لم تتوقف عن الضحك وهم يروون لها طرائفك. لقد كانت تتعرف عليك في غيابك أكثر مما فعلتْ في حضورك. أنا أيضاً تفاجأت. كنا بدون قصد ولا شعور سيئ نردّ دمائتك ومسالمتك إلى قصورك. كم كنا سيئين بدون علمنا. اليوم نفهم أنه طبع فيك. إن عندك غيره لكنك اخترته لغرض نبيل. كم قصّرنا في تقديرك. وأنت لم تنتبه لهذا ولم تهتم له. لم تفتّش عن النوايا. كنت أصغرنا ولم تفهم أنّ رعايتنا لك، التي استمرت بعد أن كبرتَ، كانت، بدون أن يظهر ذلك، قلة ثقة بك. لم تفهم أم أنك فهمت أن الحب والخوف عليك وراء ذلك، ولم ترَ بطبعك السمح أكثر. لم يزعجك أن تبقى أصغرنا وتظل تحت رعايتنا.

أحسب أن اهتمام يسرى بنت عمتي بشرى بي لم يكن أكثر من تدبير زيجة عائلية. كانوا يقولون إنها جميلة جداً، بل فكروا ذات يوم

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

في أن يشركوها في مسابقة جمال. كانت على وشك أن تتقدم إلى المسابقة لولا أنّ عمّي عادل، الذي لم يكن قد قال رأيه بعد، تمسّك في اللحظة الأخيرة برفضه وعاند إلى الأخير. لا يدافع عادل عن أبي ولا يجلب لي هدايا منه. ربما لذلك لم أحسّ أن هذه المسألة عالقة بيننا كما أحسّ تجاه عمتي بشرى التي تريدني أن أوافق على قتل أمي؛ المسألة التي كنت أتجنّب التفكير فيها. عمّي عادل، الذي أكمل تعليمه، كان أستاذاً للرياضيات في ثانوية البلدة، وكان صيته أنه شيوعي رغم أنه لم يشترك في مظاهرة ولم يهرب أمام الدرك ولم يبت ليلة في سجن. يقولون عنه إنه.شيوعي ليشيروا إلى أنه غير مؤمن وأنه يشرب الخمر، إلى أنه يتمشّى مع تلامذته ويزورهم في بيوتهم ويحمل جريدة الحزب ولا يخفيها في صدره كما يفعل آخرون. يُقدّرون في العائلة أن يسرى لغسّان، ويعجبني أن تكون أجمل بنت في العائلة محجوزة لي، لكن هذا الأمر لم يدم بعد أن كبرنا. جاءها خطّاب كثر، بعضهم مهاجرون، وصارت قصتنا من حكايا الطفولة. كانت على وشك الخطوبة عندما زلقت قدمها ووقعت على رأسها ودخلت في غيبوبة. كنت أدخل عليها في المستشفى وأرى رأسها المتورّم وأسمع شخيرها. كان رأسها محاطاً بالضمادات وشخيرها المظبوط كالساعة يدلّ على وحدة مؤلمة. كان شعوري في البداية جزءاً من الإنوهال العائلي، ثم راح ينفصل عن العائلة ويتحول إلى أمر شخصي. كان فيه خسارة خاصة لي. أخذت الذكريات تكلّمني، يوم سألتها لماذا وضعت الأحمر على شفتيها فقالت "لتشوف" هل كنت حقاً أعمى عنها أم كنت أنتظر الوقت، كيف كانت تحضر

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بنفسها العشاء وتتناوله معي، أسئلتها عني وعن سامية بالخصوص وكأنها تستفسر عمّا إذا كان هناك شيء بيننا. قال الطبيب إن علينا أن ننتظر، ليس أكثر، غير ذلك ليس في وسعنا أن نفعل شيئاً. كان الناس يستوقفونني وأنا في الطريق إلى المستشفى ويسألونني عنها، مع تلميح غامض لأخيها الأكبر منها عماد؛ تلميح لم أفهمه في حينه. لا أدري لماذا دهمتني ذكرى مقتل أمي. استدعى رأس يسرى المتورم موتها مخنوقة. استدعاء لم أكن فيه وحيداً. أكثر من واحد أسرّه لي. لم أعرف الصلة لكني تبيّنتها شيئاً فشيئاً. لم تكن يسرى زلقت من نفسها. لقد دفعها أحدهم والشبهة على عماد. راقبت كم هو ضائع يجلس في الرواق بدون أن يكلّم أحداً، ولا يدخل إلى غرفة يسرى، لا يطيق أن يراها غالباً. كنت أردّ ذلك إلى خوفه، لكن تلميح الآخرين حمل إليّ تفسيراً آخر. لم أسمع هذه التهمة في العائلة. كان عماد كبير أبنائها ولم يُعهد فيه عنف خاص. لم يكن بين الأخوين شجار مستحكم. يخيّل إليّ أن علاقةً رضيّة كانت بينهما. لم أشهده رفع يده عليها في يوم. كان مشغولاً بدراسته في الجامعة الأميركية. الهندسة المعمارية تستهلك وقتاً. لكن التلميح جعلني أراقبه، أظن أن زائرينا في المستشفى فعلوا ذلك أيضاً. لم تكن التهمة واضحة، لكن استدعاء مقتل والدتي لم يعد تلميحاً، صار تقريباً على كل ألسنة من يقابلونني. أنا لأسباب أخرى وجدته طبيعياً. كان ما يحدث ليسرى التي تنطفئ بصمت تجديداً لخسارتي. لم يكن موتها مفاجئاً. انتظرناه منذ سقوطها، لذا حدث بالتدريج وبدأ يحدث من اليوم الأول. لكني شعرت بذنب. كانت تستحق الأفضل مني. عماد أغرق نفسه في

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

دراسته. عمّتي بشرى تمالكت نفسها تبعاً لتقليد عائلي. تزايد العطف علي وكأني من جديد أخسر أمي. لكن ما وصل إلى الجميع، ولم يعد مجرد همس، هو أنّ العائلة متهمة بقتل الفتاة. الشائعة تغدو شهادة وتُنجب شهوداً. إن لم يكن عماد القاتل، فهي عمّتي. هذه عائلة قاتلة تخنق نساءها. ضحيتان في نفس البيت؛ إنه فعل وحوش. هذا لم يمنع أن البلدة شاركت في جنازة يسرى. شاركت في عزائها لكن أحداً لم يقترب من العائلة أو يفكر في واحدة من بناتها. لولا عرسان من المهجر ومن بلدات أخرى لمّا تزوجت نوال ومنال بنتا بشرى والبنت الباقية لعمي عادل "سوزان"، فليس مستحباً أن يُدخل الواحد وحشاً إلى بيته.

لا أعرف ما الذي دعا عمتي بشرى لتقترح دفن يسرى في بيتنا ليكون ضريحها جنب قبر أمي، لعله شيء يتعلق باسم البيت الذي شاع منذ دفن أمي فيه "بيت الشهيدة عايدة"، لعلها أرادت تغييره. لِمَ يجب أن تملك أمي البيت باسمها؟. عارض عمي عادل لكنه، أمام إصرار زوجته وعمتي، عاد وقبل. كان قبر يسرى رخاماً خالصاً، بينما يحمل قبر أمي شاهدة رخامية فيما هو من حجر. فكّرت أن قبر يسرى رخام لأنها ماتت عذراء. أرضاني دفن يسرى جنب أمي. كلتاهما أصبحتا هكذا لي. فكّرت في أن مأساة الأولى تتجدّد في الثانية، في أنني أُصاب ثانيةً. صار اسم البيت "بيت الشهيدتين" أرضى هذا عمتي بشرى. لقد أعادت البيت إلى العائلة. كانت لعبة رموز لم أفهمها. بدأت أُكثر من التردّد على البيت، أجلس على قبر يسرى، لا أعرف كيف خطر لي أن أحمل زهوراً إليه. فعلت ذلك

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

مراراً. ثم انبتهت إلى أنني لا أحمل شيئاً إلى قبر أمي. أخذت معي باقةً من الشقيق ووضعتها على القبر. جلست على قبر يسرى الذي كنت قبل يوم وضعت عليه باقة من الأقحوان الأصفر لم تذبل بعد. كنت شارداً عندما التقط سمعي صوتاً خارجاً من بين أزهار الشقيق. لم أجفل أبداً كأنني أنتظره. كان صوتاً كالنَفَس، صوت أزهار، وبلغة أخرى لكني فهمتها، كأنها كانت موجودة فيّ. الصوت يطلب مني أن أدخل البيت، لم أكن فعلت ذلك من قبل. نهضت واتجهت إلى السطيحة الصغيرة أمام الباب، وجدت المفتاح ملقىً على الأرض. رفعت المفتاح وأدخلته في القفل. لم يدر بسهولة. كانت الرائحة التي دخلت في أنفاسي عطنة لدرجة أنها ردّتني عن الباب. لم أكن مستعداً للدخول، لكني التقطت الصوت نفسه يدعوني إلى الدخول. أكملت إلى داخل القاعة. زر الكهرباء لمع أمامي، تقدّمت وكبست عليه. أضاء ورأيت نفسي في الصالون. كانت الكنبات مغطاة بشراشف عندما دستها وجدتها قاسية، لقد تعبّأت غباراً. أمامي كانت مرآة كبيرة في إطار خشبي، الغبار يغطّيها. أمامها جاروران انفتح أحدهما نصف انفتاحة وظهرت قماشة فيه. كانت أيضاً قاسية. حملتها ومسحت عن وسط المرآة الغبار السميك فلم يزل تماماً لكنه ترك بقعةً مغشّاة رأيت فيها وجهي عابساً لدرجة أجفلتني. رفعت الشرشف عن كنبة وجلست فسمعت قرقعة صامتة في داخلها. تركت القاعة ودخلت من باب على اليمين. كان سرير كبير في الوسط وإلى يمينه طاولة زينة عليها قلم حمرة وأسورة وقرطان. تقدمت من الطاولة وألقيت نظرة على المرآة التي كانت مغبّشة أقل. كان وجهي أقل تجهّماً. انتقلت

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

إلى باب بيج مغلق تذكّرت قبل أن أفتحه أن الغرفة زهرية اللون. كانت هكذا بالفعل، وفي أقصاها سرير مفرد، وعلى جداريها مكتبة على شكل زاوية أمامها طاولة عليها كتاب واحد "روح العروبة" لا أعرف منذ كم سنة ينتظر هنا. يبدو أننا أيقظناه، إذ يبدو لي أنه صحا على دخولي. في الغرفة باب آخر كنت أعرف أن باب المطبخ يقابله، وتذكّرت فجأةً قعدة كانت وراءه. كنت أتجول وفي بالي أن شيئاً سيحدث لا أعرف ماذا سيكون. عدت ومررت في الصالون، وأطلت النظر هذه المرة في البقعة التي تركتها في المرآة. دخلت غرفة النوم مجدداً واقتربتُ من طاولة الزينة، لكن القرط، الذي هو فص فيروزي مزروع في ما يشبه الجناح الذهبي، بمجرد أن رآني بدأ يتكلم، لا أعرف بأي لغة. إنها لغة الذهب، لكني فهمتها. كانت لغة تنتقل باللون، لون الذهب نفسه، وكانت أيضاً موجهة إلي. وصلت في البداية كلمات مشوشة كأن صاحبها يمتحن صوته قبل أن يتكلم، ثم جاء الكلام الذي يصل ذهبياً لكن مفصّلاً. لقد وصلني الكلام الذي كنت أقوله لنفسي.

– وينو بيّك. شو عم يعمل. ليش مسكرين البيت عليي. صارلي سنين ما شفت حدا. عمختنق. أنا ناطرتك من سنين. ياما تركتلك المفتاح لتفوت وأنت مش داري.

كان الصوت يزداد وضوحاً كلما استطرد في الكلام. عمّ صمت كأنّما ليستحضر نفسه، هو الآخر مبغوت من قدرته، هو الآخر لا يجد نفسه بسهولة. يريد أن يقول شيئاً، هو الأهم، لكنه يريد أن يكون جاهزاً لقوله، أن يملك كلماته.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

– ليش قتلني، شو عم يقولو. بيقولو حبيت عليه. أنا عمري ما حبيتو. لكن حبيت عليه، لأ. مش صحيح، كان عارف إني ما بحبو. أنا ما خبيتها. كنت قلّو ياها. ما بحبك، عمري ما حبيتك، لكن حبّ عليه، لأ. مكتبة الرمحي أحمد

صمت آخر. هذا الصوت الذهبي يستهلك لونه بسرعة. سرعان ما يبدأ يتحشرج. قبل أن يصبح كذلك ويغدو مبهماً ومشوشاً يتوقف ليعود فيشحن نفسه. هناك فعلاً ما يشبه الشحن، يتفرّغ ويمتلئ.

– بدي ياك تعرف إنو هذا كذب. البتقولو بشرى كذب، أنا ما حبيت حدا. لا هوّي ولا غيرو، ما حبيت حدا. البتقولو بشرى كذب. عمرها ما حبّتني.

كان الصوت يضعف كأنّما يتفرّغ من شحنته، وعندما انقطع أخيراً سكت طويلاً، لم يبدُ أن عنده بعد طاقة على الكلام، ولم تعد لدي طاقة على الانتظار. أردت الخروج لكني لم أجد المفتاح، درت في البيت ووجدته أخيراً على طاولة الزينة. رددت الباب ورائي، وسمعت صوته وهو ينطبق، وخرجت. سمعت وأنا في الباب كلاماً لم يصل إلي، لكني فهمت أنه يدعوني إلى العودة ثانيةً. جلست على القبر علّي أسمع شيئاً، لكن الكلام بقي في بطنه ولم يصلني شيء.

أخذت أذهب إلى البيت، أرقد بين القبرين. كنت أودّ أن أسمع من يسرى لكنها لم تكن جاهزة. أمي أيضاً لم تتكلم. كنت أشعر بالكلام يتخبّط في جوفها لكنها لم تتكلم. سمعت في يوم حسّاً رخامياً. كانت تتكلم من شاهدتها. فهمت "قوم". قمت فوجدت المفتاح ملقىً أمام الباب، أدخلته في القفل فدار بسهولة، دخلت

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وتوجهت توّاً إلى غرفة الزينة. كان القرط يوجّ بسرعة لكنه لم يتكلم. عدت إلى الصالون ووقفت أمام المرآة المغبرّة، بالكاد استطعت أن ألمح وجهي تحت الغبار. لكن تراءى لي أنه يبرطم كلاماً لا يخرج من شفتيه ولا يصل نَبْسُه إليّ. دخلت إلى المطبخ فخيّل إلي أن إبريق النحاس والأواني القديمة تحدث ضجةً غير مسموعة. كنت أرتدي خفاً في قدمي لا يحدث صوتاً، لكني شعرت أنّ قدمَيّ تتكلمان في اللبّاد. كان الكلام يتحفز وربما يخرج من أيّما مكان. عدت إلى طاولة الزينة، كان القرط يوجّ بسرعة ومن إحدى التماعاته وصلتني كلمة "مبين هون"، صوت واحد لم يطل لكني سمعته يتكرّر في المرآة وفي قدميّ. "مبين هون"، انتظرت حتى انشحن ذهب القرط وبدأ يتوهجّ وتتواتر التماعاته، وعند كل التماعة تصلني كلمة.

– ليش طوّلت الغيبة. قلتلك تجي.

لم أجد أنا الكلام الذي أجيب به. أردت أن أقول إنني آتي كل يوم، لكنّي شعرت أن هذا ليس الكلام الذي يصل إليها. الالتماعات تصير كلاماً أما الكلام فلا يصير بنفس الطريقة التماعات. كان كلاماً من جهة واحدة. عليّ أن أسمع فقط. كانت تقول:

– مش صحيح إنك مش قادر تفوت. المفتاح كل يوم قدّام الباب. وأنا مش كل يوم فيّي إحكي. أيام ما بقدر إحكي ولا كلمة. أنا لمّا بشوفك بتذكّر. بتذكّر، هيي كل الحياة الباقية إلنا. بنظل نتذكّر. بس نتذكّر. بنطلّع الذكريات، منرجع نطبخها، منرجع نعيشها. ما عنّا حياة هلق. عنّا حياة بنظل نعيشها. منراجعها. بنقول هون عملنا

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

صح. هون عملنا غلط.

كان الصوت يضعف والالتماعات تخفّ. تفرّغ الصوت أخيراً من شحنته وسكت. كانت الأسورة جنب القرط تتحرك بعصبيّة. تنتفض كما يفعل شخص غصّ بكلامه ولم يعد يواتيه. انتظرت حتى يشحن الصوت من جديد ويعاود البريق. لكن الوقت طال. كل ما لاحظته هو أن ذهب القرط فقد ألقه نهائياً. كان هذا إشعاراً بنهاية الزيارة. ما زال المفتاح في يدي، توجّهت إلى الباب ورددته ورائي.

كنت أعرف أن سامي منذ يومين في البلدة، رغم ذلك لم أره اقترب من بيتنا. لا أعرف بأي إحساس خطرت لي هذه الفكرة. غير أني، وأنا مستلقٍ على قبر يسرى، شاعراً بأن قوة تتسرب مني وأنني أرتخي أكثر فأكثر فوق الضريح، فكرت في نوع من التحدي لنفسي أن أذهب إلى زيارة سامي. جمعت نفسي وبتثاقل غادرت الحديقة. لكن ما أن صرت خارج الدار حتى وجدت سامي أمامي ومعه هذه المرة كلبه. اتجه نحوي وقال إنه جاء لرؤيتي، لم يكن فعل ذلك منذ خطب سامية. لم أملك جواباً، شعرت فقط عنه بنوع من الحرج وارتبكت قليلاً عنه أيضاً. سبقته إلى الصعود ولحقني، بعد أن ترك كلبه في الفناء. دخلتُ وتبعني. خرجت سامية من غرفة بشعر ملفوف بمنديل وسلمت عليّه وتركتنا عائدةً إلى الغرفة. جلست أنا وسامي في الصالون لكن سامي اقترح أن ننتقل إلى الشرفة، حملنا كرسيين ومنضدة قصيرة وجلسنا متواجهين. قدّم لي سامي سيجارة، لم أكن أعرف أنه صار يدخن فرفضتها، رغم أنني أنا أيضاً بدأت التدخين، وسامية أيضاً بدأته. سألته عن عمله، لم أجد شيئاً غير ذلك لأباشر

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الحديث معه. هذه المرة لم يكن معتدّاً ولا متفاخراً. قال:

– الحمد لله، الشغل مش عاطل، بس آخرتو معروفة مستقبل ما إلو. عمفكّر سافر، سيراليون أو السعودية أو الكويت. وين ما رحت قدامك شي.

ثم فجأةً انعطف إلى حديث آخر:

– كيفها سامية؟

لم أتوقّع السؤال ولم يكن عندي بالطبع أي جواب. منذ خطبت سامية وأنا لا أراها كثيراً، أشعر أن هذا طبيعي، لا بد أن تشتغل على نفسها، تعدها لتكون مختلفة. هي بالتأكيد تريد أن تكون جديدة، أن تكون هكذا علاقاتها أيضاً وخاصةً العلاقات العائلية التي نواصلها بدون أن نفكّر فيها، إلى أن تأتي مناسبة كهذه، فنحاول أن نجد معنى لكل جزء منها. علاقة سامية بي ستكون الأكثر إشكالاً، وطبيعي أن تبتعد قليلاً لتستطيع تفسيرها. لم يفاجئني لذلك بُعدها، بل شاركتها فيه. لكن أن يأتي السؤال هكذا محايداً.

– كيفها سامية؟

كان في ظني أن عند سامي أكثر من ذلك ليسأل عن سامية، أكثر من ذلك ليقوله. أما أن يسأل بهذا الحياد فقد رماني بعيداً وبعيداً جداً. فجأةً انتبهت إلى أن ليس من حقي أن أعرف أكثر منه عن سامية، بل ليس من حقي أن أعرف عنها أساساً. خطر لي أنه بسؤاله يكاد يتّهمني بأنني أعرف أكثر مما يحقّ لي. لم أجد جواباً، قلت فقط:

– ما بعرف.

بدا أن جوابي جعلني متّهماً أكثر، بل استفزّ عنده سؤالاً بهذا

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

المعنى، لكنه على الأغلب تراجع، قال:

– رأيك بتسافر معي.

قال هذا ورفع رأسه وبرقت عيناه. عاد إليه شيء من تفاخره لكن نظرته كان تدعوني إلى التواطؤ معه. انتبهت هذه المرة إلى أنه يلفّ مسبحة بحبّات سود على إبهامه. لاحظت أيضاً أنه يرتدي طقماً أزرق مقلّماً، وأنه يفتّش من على الشرفة عن كلبه في الفناء. لم أكن أيضاً أملك جواباً لكن شيئاً في داخلي قال لي إنها لن تقبل.

– إذا تجوزتو أكيد إنها بتسافر.

– إذا تجوزنا.

ثم بعد أن استردّ نظرته من على الفناء جمعها في حدقتيه ونظر بشكل ثابت في عينَيّ. أسبل يديه على ركبتيه وانحنى فوقهما وقال وكأنه يسدّد كلماته:

– ليش ما بتتجوزها إنت؟

لم أجد جواباً بالطبع لكني فهمت الآن أنه يتّهمني فعلاً. وجدت من السخف أن أقول شيئاً مثل إنها "مثل أختي"، رأيت أن من الأفضل أن أكون أنا أيضاً هجومياً.

– شو عم تحكي؟ سؤالك ما إلو معنى.

– أنا قلت هيك. بس بتعرف الناس بيحكو كتير. قلت لهم إنكن إخوة، إخوة بس.

تراجعه جعلني هذه المرة أثبت في هجوميتي.

– شو ما يحكو الناس بيفوت على عقلك. جايي تحكيلي سخافات. لازم تفكّر أكثر، عندك عقل لتوزن شو بتسمع.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

كان يتراجع طوعياً وربما برضا عن هجوميّتي. بدا وكأنه يشكرني عليها.

– أنا قلت، أنا قلت. لكن شو بعمل إذا حسيت إنها باردة وما عندها عاطفة تجاهي. بروح وبجي متل قلّتها. كأني لا رحت ولا جيت. بِرْضى بِزْعل ما بيهمها.

كانت هذه مقدمة شكوى طويلة. قال إن أهله اختاروا له من قبل ابنة عمّه الجميلة المتعلّمة، لكنه لم يرضخ لهم. أحب سامية منذ كان يزورني في بيتها. كان يعلم أنها لا تتجاوب معه، لكن لماذا قبلت به. يعرف أنها لا تكذب على نفسها، لكن لماذا قبلت به؟ ولماذا تستمر معه بعيدة وباردة، لا تسأل عنه إذا غاب أو حضر؟ كان حزيناً بالفعل وبسرعة حوّلني إلى مستشار له، وأخذ بصوت يزداد تهالكاً، يشكو ويطلب مني أن أكون سنده وأن أساعده في علاقته بسامية، أن أكلّمها بالنيابة عنه في الموضوع، الأمر الذي لم أكن البتّة مستعداً له ورفضته فوراً، فأنا، رغم إقامتي الطويلة في بيت خالي لا أزال ألاحظ أنّ لي في البيت وضعاً خاصاً. لم يعاقبني خالي في يوم، وكان يتركني لذلك أعاقب نفسي. كما أن امرأة خالي تراعيني علناً، وأولادها يتفهّمون ذلك ويتابعونها عليه. أنا أيضاً أراعي الجميع، بل جعلني هذا أراعي البعيد والقريب، كما جعلني متكتّماً ومنكمشاً على نفسي.

لم أعد سامي بشيء، تركته فقط يفرغ أمامي ما يغلي في صدره. وهو بمجرد ذلك استعادني صديقاً، وشعر أن هناك من يشاركه همّه. دخلت سامية وفي يدها صينية القهوة، قدّمت لنا الفناجين ثم بدا وكأنها تنوي الخروج. لحظة تردد انتهت بأن وضعت الصينية على

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

المنضدة وجلست على كرسيٍّ ثالث. لم نحر في وجودها كلاماً. كان صمت سامي يطغى على الجو، كان صمته يزداد عمقاً. لاحظت سامية أننا نقترب من إشكالٍ حقيقيّ، بادرت إلى سؤال سامي عن أهله. لم يكن هذا ليكسر صمت سامي الذي أجاب، كأنّ من داخل صمته، بما يشبه الهمهمة:

– مناح. بيسلموا عليكِ.

كأنما انتبهتْ إلى ما ساد الموقف الذي يوشك أن يقع في الغرابة. جرّت كرسيها إلى قرب سامي الذي رفع رأسه الغارق بين كتفيه ونظر بحذر إليها، ليجدها تستقبله بابتسامة واسعة وغمزة من طرف عينها. لم يكن سامي بحاجة إلى أكثر من ذلك ليخرج من انكفائه ويستردّ مزاجه. أمّه، وهي تعدّ له شاي الصباح، كلّمته عن سامية التي قلّما تدوس عتبة بيتهم: "عشو شايفة حالا، إذا حلوي، في أحلى منها"، عدّدت أمامه أسماء من تراهنّ أحلى وأنسب له. لم يكن في العادة يقيم وزناً لكلام أمه لكنه هذه المرة أصغى بانتباه وانقبض وهو يسمع. كانت هذه المرة الأولى التي يجد نفسه فيها غير محظوظ، ولا يفهم لماذا يتعلّق بسامية، بالرغم منه، ولماذا لابتسامتها هذا التأثير، لماذا يغمّه أن تعطيه وجهاً بارداً، ولماذا يفكّر فيها بهذا القدر. لم يكن يعرف ماذا يسمّي ذلك. سألته سامية عن أمه وهي ترفع حاجبها فضحك. كانت الأم تكثر من رفع حاجبها وهي تتكلم. ثم سألت عن إخوته وهي ترفق كل سؤال بحركة من يدها وفي وجهها، وهو يضحك من كل حركة. قامت من مكانها أكثر من مرة لتقلّد واحداً منهم. كان سامي ينظر إليها مفتوناً ويتفاهم معها على كل إشارة. صار

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الحديث خاصاً أكثر فأكثر وازدادت الإشارات، حتى عدت لا أفهم أكثرها. شعرت أنهما يتحاكيان بعيداً عني. أحرجني ذلك لكنه أيضاً كسفني. بقيتُ كذلك حتى قامت لتريه شيئاً في غرفتها، وقام معها، ومن الداخل كانت ضحكاتهما العالية تصل إليّ، وحين عادا إلى الشرفة جرّا كرسييهما إلى محاذاة بعضهما البعض وغرقا في حديث خافت كان يبلغني بصعوبة. شردت وغاب عني حديثهما. لم أقم من مكاني، فسامي جاء ليراني وليس لائقاً أن أتركه. هذا سيكون احتجاجاً في غير محله. لكني استأذنت لأجلب شيئاً من غرفتي التي صرت بعد سفرك منفرداً فيها. حملت منها أوراقاً وأخذت في حضورهما أتصفّحها، لكنهما، لمفاجأتي، قطعا حديثهما الخاص والتفّا حولي حتى أنهما أزاحا كرسييهما ليغدوا قريبين مني. بدآ يكلّمانني عن كتبي، ووجدت أنا المدى أمامي واسعاً، فبدأت أشرح عن كتب كامو وسارتر. لاحظت أن الاسمين أزعجا تاجر الكتب الذي يبدو أنه، في عمله، غارق في الكتب التراثية. بدأ هو من جهته يعدّدها: **سيرة ابن هشام، الكامل، أمل الآمل، الألفية**. لم أجارِه وسكتت، لكن سامية سخرت منها، قالت إنها موجودة لتأكلها الصراصير. غضب سامي الذي شعر أن المسّ بهذه الكتب يصيبه شخصياً، فاندفع في كلام ضد الغرب، وكانت مناسبة لتسخر فيها سامية من كلامه ومن التراث، وحتى من البلاد. بدأ صوتها يعلو على صوته، وهو غير راغب في مفاقمة الخلاف. بدأ يتراجع ويشرق بصوته حتى اختفى تماماً، لكن سامية بقيت على حالها. كانت قد قرأت **الطاعون** لكامو، ولا أعرف لماذا وجدته عظيماً. لم تكن قد قرأت قبله كتباً من هذا النوع، لكنها

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

قرأته في بضعة أيام ووجدته رائعاً وحدثتني عن كل فصل فيه. بعده أصرّت على أن تقرأ كل ما لديّ من كتب كامو. كانت هذه نافذتها الجديدة، وها هو سامي يرشقها من غير احتراز. فوجئت بإصرارها على أن تستمرّ في الشجار، وعلا غضبها. كان أمامها ما تهدمه؛ هذه البلاد. مكتبة خالي تحوي عدداً من الكتب القديمة التي لم تتجرأ هي على أن تقترب منها، ولم تفهم ماذا يجد الناس فيها ولا ماذا يفعلون بها. لم يكن ما فيها كلاماً حقيقياً، هي لا تستطيع أن تنطقه بدون أن تلوي حنكها. لكن سامي يتاجر بها ومع الوقت سيصبح مثلها ومثل ورقها الأصفر وأغلفتها الكرتونية. انكفأ سامي أمامها وهي أخذت تتفنّن في سخريتها، كيف أنها تجد حشرات متحجّرة في هذه الكتب، وشعرات من أجدادها البعيدين تلتصق بالكلمات. حاولتُ أن أقطع فورتها لكنها استرسلت فيها. بدا واضحاً أن المسألة أكثر من كتب. سامي الذي يعيش ويتغذى من التراث كان غالباً هدفها. تجاهل ذلك حتى لم يعد يطيق التجاهل. فجأةً قام من على كرسيه ووقف، تعلّقت عينا سامية به، لكنه دار حول كرسيّه ووقف هنيهةً وعينا سامية عليه. لمّا رأته يتحرك عجّلت وأمسكت بمرفقه. هذه البادرة كما لو أنها شجّعته على أن يقرّر، نفض ذراعه من يد سامية وسار. تركته سامية يسير ثم لحقته لكنه سبقها وصار داخل الصالة. لحظة وسمعتُ الباب ينغلق، وسامية تعود إلى الشرفة بوجه مرتبك وتقف في وسطها لحظة ثم تندفع إلى خارجها، نحو غرفتها. تركتُها تذهب وشعرت بعد قليل أن لا معنى لوجودي هنا فتحرّكت، وأنا أكاد أقتلع قدمي، إلى غرفتي.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لم ألتقِ سامية إلاّ على العشاء. كنا وكأنّ كلاً منّا يحاول أن يحتجب عن الآخر. أنا أغرقت بصري في صحني، وحين انتبهت من طرف عيني وجدت سامية شاردة ورأسها المترفّع بعيد عن صحنها وعن المائدة. كانت ترتدي بيجاما زرقاء لكنها تركت باذنجانة محشيّة في صحنها ودخلت إلى غرفتها. عادت ببلوزة حريرية معرّقة وتنّورة نيلية، وقصدت فوراً إلى الباب وخرجت. خمّنتُ أنها ذاهبة إلى بيت سامي. غابت ساعتين ثم عادت ساهمةً ودخلت غرفتها فوراً.

سامية تُحسن التقليد كما تعلم، وهي التي اشتهرت في المدرسة بتقليدها لأساتذتها. كانت تقلّدنا، أباها وأمها وأنا وأنت، وتُضحكنا على أنفسنا، لكن ما برعت فيه كثيراً هو تقليدها لسامي حين كان يزورني في المنزل مصحوباً بعنزته وحماره وكلبه، حيواناته التي يتركها تشرد في الفناء. كانت تقلّده وهو يكلّم حيواناته، وتقلّد حيواناته وهي تردّ عليه. لم تتوقف عن ذلك حين تجدّد تعارفهما، وحين كانت تعود من لقائه، وحين خطبها. لا أعرف إذا شاهدها وهي تقلّده، لا أظن أن هذا كان سيسرّه. سامي يعتبر أن التقليد للحيوانات وتقليد الناس يعني صفّهم في مصاف الحيوانات. لن يحب أن يكون حيواناً في نظر خطيبته. سامية تقلّد الذين تحبهم، إنها تَلبَسهم وتكونهم حينئذ. عودتها ساهمة تجعلها تبدو مُطفأةً وخابية، لذا يلاحظها فوراً من يعرفها جيداً. دخلت غرفتها، بقيت فيها أكثر من ساعة ثم خرجت مرتديةً بنطلوناً، ونكشت شعرها، وعلّمت بالكحل ما يشبه الشارب فوق فمها، وأخذتْ هكذا تقلّد سامي وهو ينادي حيواناته، وهو يروّج كتبه.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

"هالكتاب صفحتين منه بتروّح أوجاع البطن، بصفحة بيروح الإمساك. بيكفي يكون بالبيت لتهرب الفيران والجراذين"

لا أدري ما الذي دعاها إلى ذلك: هل تشاجرت معه أم دارته أكثر ممّا يجب ولدرجة أثقلتها. كانت تسترسل في تقليدها وتبالغ فيه أكثر من عادتها، وكأنها بذلك تصفّي حساباً لا نعرف ما هو. شعرت نفسي، لا أدري كيف، أحمل بعض المسؤولية. لقد كنت، بطريقة ما، شريكاً. شعرت بأنّ هزل سامية ليس هزلاً خالصاً، كان فيه قدر من الحدّة ومن الاستهزاء. ضحكت كثيراً مراعاةً لها، فقد أحسست أنني، من بين الموجودين، مقصود أكثر من غيري بهذه اللعبة، وأنها تكاد تكون مصالحة بيننا بعد حادثة العصر.

صار لي أيام لا أقترب فيها من بيتي. حادث سامية جعلني أذهب من صباح اليوم التالي إليه. هذه المرة تمدّدت بين القبرين لكن الصمت كان محكماً، كان صمتاً عدائياً دون شك. إنهم لا يكلّمونني. غبتُ كثيراً. من حقهم أن يغضبوا. نهضت من رقدتي، جلست على قبر يسرى، لم أسمع منه شيئاً، لكن قبر والدتي لم يبقَ ساكتاً. لزمت جلوسي على قبر يسرى. كان الهواء راكداً وفجأةً صار يتحرك وهبّت نسمة قوية مرّت على القبر، وسمعت منها بصوت أمي:

– بعدك بدك تتجوز يسرى؟

أدهشني الكلام وكدت أقول إن يسرى ميتة وهي ممددة قربك، لكن صوتي لم يخرج، وظلّ الكلام يخرج من الهواء.

– ليش حطيتوها جنبي إذا ما بدّك تتجوزها؟

لم أملك أي جواب على هذا الخلط الذي أخذ يخيفني. كان

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

طبيعياً أن يتعثّر الهواء وأن يخلط في كلامه، مع ذلك كان هذا الخطأ يخيفني، أظن أن فيه عقوبة لم أفهمها. ذهب ذهني فجأةً إلى حادثة سامية وسامي. لقد سكتُّ عن شيء، لم أعرف ما هو، لكنه الآن يتغلغل في جسمي ويقلقني. لقد أخطأتُ بدون شك. لم يكن صمتي سوى خطأ متماد. كان كذلك ضحكي. ربما لم يكن تقليد سامية سوى مجموع هذا الخطأ. لقد كان كل شيء خطأ، وأنا الذي راقبتُ ذلك ابتلعتُه واشتركتُ فيه. كنت أشعر بأننا جميعاً غلطنا، لكن المخيف هو أن يغلط الهواء، أن يغلط الموتى. لم يكن أمامي سوى الفرار. نهضت وأنا أحسّ أني رفعت طولي في الفضاء، لا أعرف أين يبلغ. كان وجهي أمامي تقريباً، ودفعته إلى أن اصطدم بقفل البوابة، ووجدت نفسي خارجها، كأني طرت من فوقها. لم أشعر بقدمَيّ وهما تتقدّمان، ظللت أشعر أنني أمشي في منامي إلى أن وجدت نفسي أمام بوابة بيت خالي. لا أعرف كيف قطعت الدرج وصرت أمام الباب وكيف انسللت إلى الداخل. لمحت وأنا أجتاز الصالون سامية التي وقفت تعترضني، ربما أرادت أن تحدّثني، لكني تجاوزتها وتركتها تتراجع إلى الزاوية مرعوبة، قالت:

– غسّان!

لكنّي أحسست صوتها يدخل في أذني بدون أن يعنيني. بصورة آلية وقفتُ أنتظر إلى أن جاءت إلى جنبي وسألتني:

– مالك؟

هذه اللحظة شعرت بأني لا أملك نفسي ولا أجد صوتي. رسمت بيدي دائرة في الفضاء وتركتها ممدودة ولم أتكلم. عادت تسألني:

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

– مالك؟

لمسني صوتها قليلاً، مع ذلك لم يحرّرني من الغرابة التي كنت متأكداً أن لا سبيل إلى أن تنفكّ عني. لم أشكّ في أنني هذه اللحظة غريب وبالكاد أشعر بحجمي. لم يحرجني ذلك، تصرفت وكأنما نبتت لي أجنحة. كان وجودي خفيفاً للغاية وكأنني فقدت معظمه. تركت سامية في حيرتها وطرت إلى غرفتي. خفتُ أن تلحقني سامية فرددت الباب ورائي، لكن سامية لم تنتظر طويلاً حتى تغادر الصالون. لا أعرف كيف شعرتُ من داخل غرفتي بأن الصالون خلا منها. تمددت على السرير، كنت كريشة فوقه. خلعت قميصي واندسستُ في الفراش، كان اللحاف يحصرني كتابوت. أغمضتُ عينيّ وتماوتت، ثم فتحتهما وبدأت أستعيد حجمي تحت الغطاء، إلى أن بدا لي أن أخرج من الفراش لأنظر إلى نفسي. وجدت نفسي ووجدت صوتي وكأن ثمّة غيمة طارت من عيني. في هذه الأثناء كان هناك من يدقّ عليّ الباب، فتحته لأجد سامية، كما توقّعت، وفي يدها صينية عليها إبريق شاي وكؤوس. قالت:

– فكرت إشرب شاي معك.

كنت فعلاً بحاجة إلى كأس من أي نوع، إلى أي شيء ينزل في جوفي، إلى أي مادة في داخلي، أي ثقل. سامية هي نفسها وفي حجمها وطولها قبالتي، أنا في حجمي وطولي. كنا أنفسنا. لم أجد رغبةً في الخروج من غرفتي وتناول الشاي معها. هذا يحتاج إلى وقت ولا بدّ أن نملأه. لم أكن راغباً في حديث. مع ذلك خرجت معها بعد أن عدت وارتديت قميصي الذي بقي طرفه ظاهراً من داخل

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

البنطلون. سامية كانت ممشوقة في بنطلونها الجينز الأزرق الفاتح الممزق على الركبتين. سرت معها وجلسنا معاً على الكنبة الكبيرة ووضعنا الشاي على منضدة أمامنا. كانت سامية مشغولة بسكب الشاي عندما قالت من تحت يدها:

– شو باك، مش على بعضك؟

فكرت بأن أفضي إلى سامية بالأصوات التي أسمعها من على قبر والدتي، فكّرت بل ألحّت عليّ الفكرة. كنت أريد أن أخرج ما في داخلي، لكني لم أعرف من أين أبدأ. في النهاية قلت في عبارتين كل شيء.

– القبر عميحكيني. حلق أمي عميحكيني.

كنت أنتظر منها أن تجفل، لكن سامية بقيت على هدوئها ولم تُعلّق. انتظرت مني أن أكمل، لكني لم أزد على أن كررت العبارتين:

– القبر عميحكيني. حلق أمي عميحكيني.

انتظرت أن تخاف من كلامي لكنها ردّت:

– وشو عميقولولك؟

عندها وجدت الفرصة لأروي ما سمعته من الحلية.. "ما حبيتو. قلتلو إني ما بحبو، لكن خنتو لأ"

سامية، التي كانت مستغرقة في حديثي، استوقفتني مراراً لتعرف من أين جاء الصوت، وماذا يشبه. قلت لها:

– هذا صوت أمي.

– وشو عرّفك بصوت أمك، حلّك تنساه. قلتلي إنو كان عمرك

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ثلاث سنين لمّن انقتلت.

– مبلى صوت أمي، أكيد، رجعت افتكرتو. رح يكون صوت مين؟

"رح يكون صوت مين؟" كانت هذه حجتي. أي حلية ستكلّمني إن لم تكن هي؟ سامية تدقّق لأنه إذا لم يكن الأمر كذلك لن تكون هناك حكاية. لم تشكّ، لم ترتَبْ، تابعت بعينيها الكبيرتين وكانت تكرّر لنفسها الكلمات التي أقول إني سمعتها. أحياناً كانت تقترب من الأصل حتى يكاد يخيّل إليّ أنها هي، لم تكن أمي في عمر أكبر حين خنقها. قالت إن هذه كلمات أبيها أيضاً، هو أيضاً قال لم تحبه لكنها لم تخنه. قالت إن الأمر يستحق أن نوزّع شيئاً عن روحها. إن لم نفعل ذلك ستتكلّم في كل شيء، سأسمعها في ماء الحنفية وفي القمح المحصود وفي أكوام الزيتون وفي ماء الساقية وفي الرعد وفي المعالف وفي الصور. كادت تتكلم صورتها في صالون المنزل، لكن سامية لم تترك لها فرصة وهربت من أمامها. لم تتفاجأ. كانت المسألة تقريباً في رأسها. لم تستغرب أنها تتكلم أو أن يتكلم أي شيء. لم تتعجّب. كانت تعرف أن القصة لن تكتمل بموت أمي. كنتُ من جديد بالنسبة لها يتيماً وهذا الصوت الأمومي لا يزال يبحث عني. لم تستغرب. واستني، وجدتني جديراً بالمواساة. أحاطتني بذراعها وبكت على كتفي.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

من غسّان إلى فؤاد

مضى وقت طويل ورسالتك أمامي لم أكتب جواباً عليها. لا أعرف إذا كان السبب هو أنني أمضي وقتاً أطول مع سامية، بعد أن حدّثتها عن الأصوات التي أسمعها من الهواء أو من الحليّ. مقتل أمي بالنسبة لها أعجب من هذه الأصوات. موت يسرى كذلك ليس مصادفة، إنه تكملة لقصة لا تعرف متى بدأت. لا بدّ أن ذلك حدث في جيلٍ آخر. إنها تحدس أن أشياء أخرى على الطريق بالتأكيد وعلينا أن ننتظر. لا أجادل سامية، أنا أيضاً خائف، كنت طوال حياتي خائفاً، فعلت كل شيء وأنا خائف. قدرت على أن أجمع الخوف مع الدرس، مع النزهات، مع العيش. كانوا يتحدثون عن اجتهادي في المدرسة لكن خوفي كان يعادل تفوقي. كنت خائفاً لدرجة أنّي لم أكترث حينما سمعت الحلية، حين سمعت الهواء، ما كان بي أكبر من ذلك، خوفي أكبر منه، بحيث لم يعد هناك ما يخيفني. سامية جعلتني أفهم أن هذا العالم مخيف، وأننا بشكل طبيعي مخلوقات خائفة.

أفكر أحياناً في طفولتنا معاً. كنت أنت تدير حياتي بالرغم من أنني أكبرك سناً. أنا دائماً عديم الانتباه، وكانت أمك ترسلك معي

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لئلا أسهو أو أشرد. مع ذلك لم تضق بهذه المهمة العجيبة، رعاية ولد أكبر منك، بل تقبّلتها باندفاع في حين تضيق بتكليفات سامية وقيامها بدور الأخت الكبرى. أنا في الواقع تقريباً بلا عمر، لم أشعر في يوم أنني الأكبر، ولم أفهم البتة ماذا يعني الأكبر، ولم يزعجني أبداً أن أكون تحت رعايتك وأنت أصغر مني. لم يكن العمر بالنسبة لي امتيازاً لدرجة أنّي لم أشعر أنني أكبر ولم أعلّق على ذلك أي شيء، لا شيء يرجع إلى المال أو اللبس أو الأهمية. لم يهمّني المال ولا أزال كذلك. لم يهمّني الملبس ولا أزال أرتدي ما يصل إلى يدي، آكل ما أجده وما يُقدَّم لي، وفي النهاية أرضى بكل ما أصادفه أمامي، لا عن قناعة ولكن لأني لا أنجرّ بسهولة إلى مشكلة، ولا أقبل أن يتحول أمر عادي إلى مشكلة. أراه لا يستحق ذلك ويسعني أن أُسهِّل له المرور، أتعمّد أن لا أراه وأترك الأمور تجري بدونه. قليلة جداً هي الأشياء التي تستحق أن نقف عندها وأن نصارع من أجلها، قليلة جداً هي الأشياء التي نغضب لها لأنها تستحق، لا لأنها تخصّنا. أمور كهذه قليلاً ما تحدث، لكنها عندما تقع تستحق أن نغضب لها. غضبت في حياتي مرات قليلة حين كنت واثقاً أن الأمر لا يخصّني، وأني لا أدافع عن نفسي. في أكثر المرات كنت أتراجع، لا أجد قوة للدفاع عن نفسي. كثيرون وجدوا في ذلك موتاً للأنا أو عجزاً عن الدفاع عنها. أنا أيضاً أجد الأمر كذلك وأحزن لأني لا أجد القوة اللازمة لأقتحم، لأقتطع لنفسي حصّة، لآخذ ما يُعتبر حقي. أترك الآخرين يعتدون عليّ وأخجل، أخجل كثيراً من خوض معركة في سبيل نفسي. أتنازل بسهولة لأن لا شيء يستحق أن نصمد عنده، لأن

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لا شيء من هذا النوع يستحق أن نخوض معركة في سبيله. أخجل من نفسي لأني لا أدّعي لها أن السبب أخلاقي، أعرف أنه خمول لا أكثر، أنه جبن، جبن فحسب، ضعف للأنا وقعود، فقط قعود. أعرف أن هذا يحرمني من حقوق كثيرة، حين لا ندافع عن حقنا فما أسهل أن نخسره. التسامح في هذه الحال ليس سوى بخل، فجلّ الذين لا يقدرون على الاقتحام لا جرأة لديهم على المطالبة، لا ذات عندهم إلا ذلك الصوت الضعيف الذي يشكو ويشكو فقط. من السهل أن يبدو ذلك تسامحاً وترفّعاً؛ وعلى الأقل أن يدّعي كذلك. ما عدت على كل حال أعاني من أمر كهذا، لم أعد أستحي به، في الحقيقة ما عدت أستحي من ليونتي ولا استعدادي للتوافق والقبول. قررت أني هكذا وُجدت. أنا شخص خجول ولا داعي لأن أضيق بخجلي؛ شخص غير مقاتل ومسالم ولا سبب لأكره نفسي من أجل ذلك. هناك أشخاص مثلي في كل مكان ومن حقهم أن يوجدوا ولا داعي لتكون الحياة معركة. إنها أقل من ذلك، من الأفضل أن نتركها تمرّ عادية رتيبة ولا نحوّلها إلى دراما وإلى قضية.

هذا كله تحدثت به سامية التي فهمتني بسرعة. لم تقل إني عديم الطموح، فأنا، بدون أن أبني على ذلك، متفوق في دراستي كما هي تماماً. لكني هكذا لأنه سهل عليّ، لأني أستوعب بسرعة ولا يتعبني أن أمضي ساعات في القراءة. فهمت أيضاً أنك لست كذلك، أنت تتعب من القراءة الطويلة لكنك تفهم عمل آلة بمجرّد النظر إليها. إنه خيال لا أملكه ولا أستصغره. أنت تحسن استعمال يديك فيما أنا أتعثّر بهما. لا يمكن القول إنك لا تفكر فأنت تقول بدون جهد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أشياء صائبة، تضع يدك على أشياء لا أجدها بسهولة، وتصل فوراً إلى جواب مفيد. أنا أتسلّى أحياناً بمناقشة أمور هوائية. النقاش متعتي، وغالباً ما أربحه، لكن لا جدوى الأفكار أكثر من جدواها. إننا لا نعرف متى تغدو الأفكار حقائق، لا شيء في محيطنا يدلّ على أن ذلك قابل لأن يتمّ. ثمة أفكار لم تتغير منذ ألف سنة. لا داعي لأن نحلم، إننا لا نهتم بالأفكار وما نريده ونعطيه قيمة هو الأقدم، الحقيقة عندنا هي بعمرها. لا بد أن تكون هكذا منذ بدء الخليقة. كنا حفنة أشخاص نهتم بالنقاش لكن الناس نظروا إلينا بريبة وقاطعونا تقريباً، على الأقل ما عادوا يشاركوننا حياتهم، بقينا حفنة إلى أن تعبنا من أنفسنا وفضّلنا الوحدة. أعرف أنك تفهمني كما تفهمني سامية، أنتما تحسنان الإصغاء. أفكّر أحياناً أن موت أمي علّمنا نحن الثلاثة، علمنا وجمعنا. أفكّر أن ثمة تياراً بيننا، أن الأشياء تمر بيننا بسهولة، وأننا نشعر ببعضنا البعض كثيراً.

نعم. أعرف أنك تفهمني، لذا تكلّمت كثيراً عن نفسي. وتقول سامية إنها تحب أن تسمعني، أنّ حديثي، تقول، يربّيها. بعد حادثة تقليدها لسامي عدنا نلتقي بعد أن حبست نفسها، عن كل من في البيت، عند خطبتها لسامي. الآن تعود من الجامعة وتروح تفتّش عن أحدنا لتتكلّم معه. خالي، الذي لم يفهم كيف وافقت على خطبة سامي، أقل قلقاً عليها، وكذلك امرأته. إنها تبدو على طبيعتها الآن، لم تتأثر علاقتها بسامي. تنتظره إلى أن يعود من بيروت وتخرج معه، تزور بيت أهله ويمرّان معاً على بيوت أصدقاء من زمن الدراسة. تمازح الجميع وتقلّد الجميع. تنهض من سريرها وهي تقلّد أباها

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وتقلّد جدتها، أم أمك، وتقلّد صاحب الدكان وتقلّد أهل سامي وتقلّدني. هذا اليوم قلّدتْ عمتي بشرى وتوفّقت كثيراً في تقليدها. صارت عمتي بشرى بعد وفاة يسرى بنتها أكثر هدوءاً، ما عادت تكلمني عن أمي أو تشير إليها، أكثر من ذلك ما عادت تتكلم عن أبي. لقد شعرتْ أن يسرى ضحية في العائلة، قد تكون ضحية كلامها، هي بشرى، أو جريمة أبي. كانت ثمناً دفعته العائلة، وقد تكون هناك أثمان على الطريق. صارت تنظر بفزع إلى أولادها وتحظر على الجميع ذكر أمي. لاحظوا عليها ذلك لفرط ما كان ظاهراً. عمّي عادل بدأت همّته تثقل ويقلّ خروجه، وفي النهاية احتبس في منزله لا يغادره إلا لضرورة. صار له أكثر من شهر لم يخرج. أزوره أحياناً فأجده في غرفته يقرأ في كتبه القديمة. هو الوحيد الذي ذكر أمي، لم يذكرها فقط بل انتقد أبي بحدة، قال إنه وحش وأن أمي كانت امرأة جميلة ولطيفة، ولو لم يكن أبي مجرماً بالطبيعة لما كان تجرّأ على قتلها. عمّي أيضاً يشعر أن وفاة يسرى ليست بعيدة عن مقتل أمي. لم يقل ذلك ولكن تكلّم عن الصغار الذين يدفعون ثمن آثام الكبار. من الواضح أن العائلة تتّجه إلى كره أبي، إلى تحميله مسؤولية موت يسرى. القبران المتجاوران كانا من أثار جريمته المزدوجة، لقد قتل الإثنتين ويحمل إثم موتهما. انقلب الأمر، لم تعد أمي الخاطئة، لقد كان موت يسرى حكماً إلهياً بتبرئتها. الآن، كما شعرت، يمكن لأمي أن ترقد بسلام، لكنني لم أعد أحتمل الإصغاء للحلية أو للنسمة العابرة القبر. هجرت البيت والقبرين، وتصرفت كأنني نسيتهما.

كنا نرى سامي في البيت كلما جاء إلى البلدة من بيروت. نراه على

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

المائدة ونراه في السهرة ويفرح به خالي كما تفرح به أمك. تسعدهما رؤيته هو وسامية متفاهمين وأن يكونا كاسميهما اللذين يضحكاننا، متطابقين. سامية وسامي يجلسان متجاورين على كنبة واحدة أو على كرسيين متحاذيين، ذراعه ملتفة على عنقها أو خصرها. لم يعد سامي حذراً فهو يتكلم بطلاقة عن عمله وعن مكتبته التي دشّنها منذ شهرين، وعن السماسرة الذين يأتون له بالكتب إذ ما عاد يقصد أصحابها بنفسه. كان صيته يرتفع بين أبناء البلدة في بيروت، وهو فخور بذلك ولا يخفيه. كان يحمل إلى البيت الكتب التي تتكدّس في غرفة سامية التي لا طاقة لها على قراءة مجلداته القديمة. وحتى خالي لا يجد رغبة في تصفّحها، لكن وجودها يُشعرنا به وبعجقته. فقد كان، رغم أناقته المتكلفة، عالي الصوت، وغالباً ما نراه بيننا من دون أن يطرق الباب، ويتنقّل بين الغرف والشرفة بدون إشعار، ويرمي ما يحمله من حلوى وأشياء على طاولة المطبخ بدون أن يعلم أحداً، وغالباً ما تعثر عليها امرأة خالي بعد مغادرته. لسنا كذلك كما تعلم، فنحن مرتّبون ولكلٍّ خزانته، لكن عجقة سامي الجديدة علينا كانت بالنسبة لسامية ميزة. إنه رجل مشغول لا وقت لديه للترتيب. لم تستفز عجقته أحداً على كل حال. لم يكن الترتيب بالنسبة إلينا وسواساً، بل مارسناه بدون أن نشعر به، لكن ما ينضاف إلى عجقة سامي هو قصصه التي ينقلها بصوت مجروش بالضحك عن أصحابه في بيروت. هذه أيضاً لم تجدها سامية ولم نجدها نحن مزعجة. كان أحد هؤلاء الأصحاب نموذجه في الفكاهة، ولا يروي عنه نادرة إلا وعيناه مغرورقتان بالضحك وصوته متهدّج. أصدقك القول أنني لا

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أستمتع بهذه النوادر في حين يعلو ضحك أبيك وأمك وسامية بالطبع، وقد حدث أن دعا هذا الشخص إلى البلدة وصحبه إلى بيتكم وسعيت جهدي لكي أستملح نوادره، بل شعرت أن ذلك واجبي تجاه سامية وتجاه أبويك، لكني لم أحب فكاهاته ووجدتها غريبة عليّ. الأكيد أن سامي الطفولة ليس سامي اليوم، آنذاك لم أكن بحاجة إلى أن أسمعه، كان كل من حوله يكلّمني، عالم حاشد يغمرني ويحيطني من كل الجهات، كان صمته يعلو على كل الأصوات والحركات، وكنت حتى في شرودي أتماسّ معه بل أشعر أنه يبثّ نفسه فيّ. الآن هو عادي جداً، إنه نموذج يسعى بكل قواه ليكون نموذجاً، بل هو لفرط ذلك يغدو أكثر من نموذج، يغدو نموذجاً صاخباً ونافراً. لا أعرف ما جذبه إلى سامية التي هي من ذكريات مرحلته الأولى، لا أعرف إذا كان ذلك شيئاً من هذه المرحلة بقي في نفسه أو حنيناً لا واعياً إليها. إنه ناجح وقد ربّى في وقت قصير رصيداً محترماً في البنك، لكني لا أظن أن ذلك كاف لجذب سامية. يمكن لأي واحد أن يلاحظ كم هما مختلفان، لكن أليس الاختلاف قوة جذب هو الآخر.

لم تكن يسرى خطيبتي لكن شيئاً كذلك كان يدور حولنا. عمتي بشرى، يتراءى لي، لم ترحّب بذلك. كانت تراني أبن أمي وخالي ولا عبرة لما فيّ من دم أبي. كانت تريد لأبي أن يتزوج وأن ينجب ابناً أقرب إليه. أعمامي الآخرون كانوا غير مبالين بوجودي في بيت خالي، غير مبالين أيضاً بحقيقة دمي. في الحقيقة كانوا غير مبالين بما فعله أبي ويهمهم أن يدفعوه عنهم بأي وسيلة، بل هم حين كبروا قليلاً

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لم تعد تهمهم إلا مسألة الإرث، وقيل إنهم اعتدوا على حصة أبي، وأن أبي عرف ذلك ومن منفاه أخذ يهددهم. عمي عادل، اليساري القديم، فاجأ الجميع بتدخّله في مسألة الإرث، بل واستغراقه فيها ومشاجراته اليومية حولها. لم يهتم عمي بعلاقتي بيسرى إلا أن ذلك يعني ضم حصتي إلى حصتها. لا أعرف ماذا كانت يسرى ترى فيّ. كانت أنيقة للغاية وأناقتها تطغى على جمالها، قادرة دائماً على أن تكون مانيكاناً وأن تكون نموذجاً بثيابها. لم تكن ناجحة في الدراسة ووصلت بمشقّة إلى صف البكالوريا ولم تستطع أن تخرج منه. أنا، بمقتل أمي، بإقامتي عند خالي، وبالطبع بقلة أناقتي وإهمالي، لم أكن مناسباً لها، لم أكن على الأقل من صنفها، فيما كان الشبان يتحلقون حولها، وفيما كانت تقريباً نجمة، فاجأتني بأنها أخذت تتقرّب مني. أخذت تزور بيت خالي لتراني، وبالطبع لاحظتم جميعاً ذلك. كانت تتوجّه مباشرةً إلى غرفتي وتبدأ بترتيبها، وأحياناً تتناول يدي وتبدأ بتقليم أظافري، وتحمل لي منديلاً أو جوروباً وحتى قميصاً، بل وتشذب لي سالفي وتزيل بمقصّها شعر أذني. لم أكن الوحيد من أبناء عمّها الذين توصي التقاليد باعتبارهم خطاباً مفترضين، بين أولاد عمها أنا أبعد واحد عن أن أكون كذلك. بيني وبين العائلة قبر وجريمة. لا أعرف إذا كان هذا ما جذبها لكنه لم يجذبني، لم تكن لدي الجرأة لاغتنام هذه الفرصة، كنت خائفاً من كل العائلة ومن خوفي لم أقاطعها وبقيت متصلاً بها. كان خالي وامرأة خالي يوصيانني بذلك وكنت أطيعهما. يسري أيضاً لم أستطع أن أبعدها عني لكني لم أتقرّب إليها. كنت أخاف من اشتهائي إياها، وفي الليل

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أتعذّب لأني لم أقم بالبادرة التي تنتظرها. كان يكفي أن أحيطها بذراعي، أن أمسّ خدّها بكفّي، ان ألمس شعرها، لتصبح بين ذراعيّ أو تصير في سريري. لم أكن أعرف ماذا سيلي ذلك لكني أشعر أنه يخيفني. أذكر أنها جاءت في غياب الجميع ودخلت إلى غرفتي، لم يكن هناك من عذر، الجميع غائبون ونحن وحدنا. لم يكن في وسعي أن أهرب لأي سبب، هي لم تبالِ، لم نذهب إلى السرير، لكننا لعبنا بجسدينا، وحين شعرنا بأن الباب انفتح وبدأت الأصوات تصل انفصلنا. في اليوم التالي لم تأت وغابت أسبوعاً. أنا أيضاً لم أجرؤ على زيارتها في بيتها. بعد أسبوع زارتني، هذه المرة كان البيت مليئاً، لكن يسرى كانت أيضاً مختلفة، لم تكن التجربة سهلة عليها. لقد قدّمت نفسها بدون حساب، ووصلت إلى حيث لا تريد أن تصل، لم تكن هذه مقدمة صالحة لعلاقة أو خطبة. كانت مكسوفة باهتة، وأنا الذي وجدتها كذلك شعرت كما لو أنها خلّصتني من حرج، وارتحت لأن ما حدث كان بلا ثمن ولن يبقى مسلّطاً عليّ. أنا أيضاً جمدت في موضعي ولم أقم بأي حركة سوى مبادلتها السكوت بالسكوت والتجنّب بالتجنّب، تركتها تخرج. حين التقينا بعد يومين كانت الحادثة امّحت وكنّا صرنا وراءها. ربما كان الدور عليّ لكي أبادر، ربما انتظرت مني ذلك لكني لم أعد جاهزاً، حتى أن جمالها الذي ذقته لم يعد مشتهاي. أظن أن هناك حكمة في دفنها بجوار أمي، هكذا أشعر بأنها تخصّني وأنّ شيئاً ما قد تحقّق بطريقة ما بيننا.

سامي وسامية ينتقّلان من بيت إلى بيت، إنهما يدوران على بيوت الأقارب، أقاربنا وأقارب سامي. ليس الأقارب وحدهم ولكن بيوت

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أبناء البلدة المقيمين في بيروت. سامية توافيه في بيروت بعد أن تنهي يومها في الجامعة. لا بدّ أن سامي أصبح بسرعة متزايدة مهماً. البلدة تتكلم عنه وعن مهارته. لم يحدث أن صار شخص بهذه السرعة حديث الناس في البلدة. استأجر لمكتبته مستودعاً أوسع في الخندق الغميق وبدأ يفكر في مكتبة في البلدة. يقال إنه يفكر في سلسلة مكتبات في صيدا وطرابلس وضاحية بيروت. يقال إن مشروعه أكثر من ذلك، تجارة كبيرة بين المدن. المهم أن هذا النجاح جعله لامعاً. لقد حدث في زمن جديب لم يعد قابلاً لنجاحات سريعة. البلد في حرب داخلية والأسواق غير مزدهرة، لذا بدأ همس حول سامي، لا بدّ أن هناك أسراراً وراء نجاحه. صلات مع النافذين وخدمات غامضة لهم، قد تكون غير نظيفة، قد تكون تهريبات أو نساء أو سلاحاً. همس لم يمنع الاحتفاء به في كل مكان، بل ربما زاده. على كل حال، علاقاته بالنافذين، أسياد الحرب، لم تكن خفية. بيته في بيروت أو في البلدة كان عامراً بهم. يقيم لهم مآدب ويتبادل الزيارات معهم ولا يخفي علاقته بهم. بل الأرجح أنه يجتهد لإعلانها وكشفها. قيل إنه ذو رتبة عالية في أحد التنظيمات، وقيل بل في تنظيم آخر، وهو لم يفعل شيئاً ليزيل هذه السمعة. فعل ما يستطيع لتوكيدها.

سامية سعيدة بكونها تتقاسم معه هذا الاعتبار. في البلدة وفي بيروت هي شريكته، معه تلتقي بالمهمين وتتلقى منهم حفاوة وتدخل إلى بيوت رفيعة وتُعامل فيها كشخص مهم، وتجد نفسها في وسط لا يُتاح لمثيلاتها بسهولة أن يكنّ فيه. كانت شبه مغمورة بهذا الجو. يبدو هذا في عينها وكلامها ورواياتها وثيابها. بدأت تبتعد عن وسطها

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وتنتمي إلى غيره، تريده أن يشعر بهذا الانتماء الجديد، بل تسعى لتُشعر مَنْ حولها بموقعها المختلف. تذكر أسماء الجدد وأسماء نسائهم، وتنقل ما يقولونه وخاصةً ما يسرّونه إليها، وتصف بيوتهم ومجالسهم. كانت تبدو مستغرقة مخطوفة، وكأنها لا تصدق.

أنا كنت أصبح خارج ذلك، أرى سامي وسامية حين يحضران إلى البيت وأسايرهما بتكلّف وأستمع إليهما وأضحك معهما، وأتنفس حين يخرجان إذ أكون انتظرت هذه اللحظة منذ جالستهما. كانت سامية خاصةً تريدني أن أجلس معهما، وتريدني أن أرافقهما في زياراتهما، بل تقترح عليّ أن أصاحبهما إلى بيروت، وكنت أجد دائماً عذراً لكي لا أفعل ذلك. أعذار لم تجز على سامية، لذا فهمت أني لا أريد وسكتت عن اقتراحاتها. أظنها شعرت بأني في قرارتي لا أتجاوب معهما لذا صارت تقلّل من المناداة عليّ لأجالسهما، وأنا شعرت بذلك فصرت أفلت وأكتفي غالباً بمصافحتهما ومبادلتهما بعض العبارات على الباب ثم أتركهما لبعضهما. لكن المسألة تتّخذ أحياناً مساراً آخر. يأتي سامي وفي صحبته واحد من المسؤولين ويطلب مني أن أبقى معهما في الصالون، فأجلس صامتاً غالباً، رغم أن سامي يحثّني بأكثر من طريقة على أن أتكلّم، لكني أتقصّد الصمت هذه المرة لكي لا أقع في مجاملة رخيصة أو أتبرع بموافقة لا أريدها. خالي وامرأة خالي كانا بالطبع سعيدين بتفاهم سامي وسامية، سعيدين بهناء سامية واستقرارها. كانا أيضاً فخورين بالصهر الذي صار في وقت قياسي من أعيان البلدة. لم يعودا محرجين لأنه لم يصل إلى البكالوريا بينما كادت سامية تتمّ ليسانس الأدب الفرنسي

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وتُدرِّسه، مع ذلك، في ثانوية البلدة. لم يكن صاحب شهادات لكنه متكلّم بارع ولبق يستلم ناصية الكلام ويلعّب المجلس على أصابع يديه. يستدعونه للخطابة في مختلف المناسبات ويتنقّل من حفلة إلى حفلة، يقف أمام المايكروفون ويرتجل متوعّداً الاستعمار والصهيونية. كلامه دارج مكرور لكنّ صوته قوي ورخيم. كونه رائداً في "فتح" هو الذي دعمه، وهو جرّ معه إلى فتح كل رجال البلدة القديمة وألحقهم بها. هؤلاء زمرته ولا يحضر إلا وهو محاط ببعضهم، يرفعون كلاشناتهم حوله ويصحبونه إلى بيته، هذه حاله في البلدة وحاله في بيروت، في حين كان بيته في البلدة يغصّ بهم، استأجر لهم على حساب المنظمة داراً واسعة في الضاحية، صارت له مكاتبه. خالي وزوجته وسامية بهرهم ذلك في البداية، قبل أن يشعروا أن ذلك فوق طاقتهم، وبالطبع عرض على خالي وعليّ أن ننتمي إلى المنظمة، وحرنا كيف نرفض، وفي النهاية وجدنا طريقة لرفضه، وهو اقتنع ولم يعد إليه. من باب تكريم خالي وأسرته، دعا قادة المنظمة إلى بيتكم للغداء واستعدّوا لذلك قبل أيام. أحضر الكراسي والطاولات وجلب من المخيم من تساعد امرأة خالي، وفي اليوم المحدد حضر القادة ومعهم مرافقوهم، وكلابهم التي تركوها في الحديقة ملأت المكان بفضلاتها. لم يكن القائد محمود، ولقبه أبو ثائر، وحده، بل دخل في حلقة يرفع أفرادها السلاح ويهتفون للمنظمة وله، وحين جلس الجميع وبدأت الجاطات والأطباق تتتابع إلى الموائد بدأ أبو ثائر يتوعّد تنظيماً فلسطينياً وآخر لبنانياً تابعين لسوريا.

– ساعة واحدة بنمحيهن. هنّي فيهن يوقفوا قدامنا، بساعة واحدة.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

والله ما بهدّوا أكثر من ساعة.

الرائد أبو ثائر لم يخفِ تذمّره من جو البلدة المعادي للمنظمات.

– ما يستحوا، نحنا بنقدم شهدا وهني بيكرهونا، شو بدهن منا، والله بيفضّلوا العدو علينا. قال بدهن يبيعوا ويشتروا. قال نحنا خطرين عليهن، بنجبلهن الموت والأذى. كذابين، نحنا بنحميهن. لولانا كان العدو صار بأرضهن. لولانا ما كانوا باعوا ولا اشتروا. كانت بيوتهن وبساتينهن صارت بإيدين العدو.

يتكلّم كما لو كان يخطب. يتجهّم وهو يقذف الكلام. سمرته الحادقة وملامحه الحادة وشاربه الكثيف تشترك في نقل وعيده وتعاليه. الناس حوله سكوت وهو يُدخل يده في صينية الرز ويفسخ اللحم بأصابعه ويقذفه إلى فمه. الجميع بالطبع، حتى خالي وزوجته، جاروه في طريقة الأكل. حوله تتصاعد عبارات أكثر حنقاً: "فشروا" "يتخيبوا" "نحنا هون بدهن ولا ما بدهن" "على رقبتهن" "على جثتنا" "ينقبروا يسكتوا"

فجأةً انفتح الباب الذي لم يكن جيد الإغلاق واندفعت الكلاب نابحةً هائجة. لم يكن هذا محرجاً للمدعوين الذين، بالعكس، ابتهجوا وهم يرون الكلاب تدور حول الطاولات ويصطفّ كل واحد جنب صاحبه، وصاحبه باليد التي كانت مبللة بالسمن واللبن والرز يملّس على صوف الكلب الذي يندسّ بين أحضانه. انتقل الحديث إلى الكلاب، تكلم أبو ثائر عن كلبه، عن رعايته لأولاده، أولاد أبو ثائر، وتكلم آخرون عن كلابهم التي وقفت جنبهم تصغي لكنها بدأت تشتاق إلى الطعام. رمى البعض اللحم لها على بلاط

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الغرفة فأخذت تلتقطه وتمضغه، ثم بدأت الكلاب الأجرأ تقفز على الطاولات وتدسّ أفواهها في الرز والمرق؛ هذا المشهد زاد الجلسة صخباً وضحكاً. خالي لم يستطع مجاراتهم في الضحك، ولا سامية ولا امرأة خالي، بينما كانت ضحكات سامي تفرقع من فوق رؤوس الكلاب. عمدوا إلى إنزال الكلاب وإجبارها على أن تلزم الأرض، لكنّ واحداً منها وقف في الزاوية ورفع رجله وبال فوق البلاط. هذا المشهد الذي تغيّر له وجه سامية دعا أحد الحاضرين إلى طرد الكلب إلى الخارج، وطرد الكلاب الأخرى معه، الأمر الذي لم يتم إلا بقدر من النباح والمقاومة. ولمّا صارت الكلاب خارج القاعة وأُحكم إغلاق الباب ظلت وقتاً طويلاً تنبح على الدرج وتدفع رؤوسها في خشب الباب، فيما الحديث ما زال مستمراً عن الكلاب، إلى أن قال أبو ثائر:

– الله يخيبهن، فضحونا قدام الجماعة، وسّخوا البيت. سامحونا، هذي كلاب مش هاي. قصدي مش معودة ع الدلال والنعومية متل ما في بالبيوت. هذه كلاب شرسة، كلاب مقاتلة.

عجّلت امرأتان من المخيم إلى تنظيف المكان من بقايا الأكل ومن بول الكلب. دلّتهما سامية على الحمّام فعادتا من هناك بسطل ووسائل للتنظيف وممسحتين، انحنيتا على الأرض وبدأتا ترفعان البقايا عن الطاولات، وتجرّان الممسحتين بعد أن تغطّانهما في السطل الذي دلقتا فيه سائل التنظيف. لم تبادر امرأة خالي ولا سامية إلى مساعدتهما، تركتاهما تعملان وحدهما وكأنّ هذا جزء من المأدبة أو أنهما جاءتا لهذا الغرض. عرض أبو ثائر على خالي أن

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

يترك له كلباً لحراسة البيت، قال له مشجّعاً إنه سيبقى في الحديقة ولن يصعد إلى البيت. لكن خالي لم يتركه يتم عبارته بل رفضه بيده وأمارات وجهه وصوته.

كانت المرأتان ما زالتا تواصلان عملهما وتتناديان من فوق رؤوس المدعوين: "هذا البلاط شو وسخ.... من سنة ما تنظف" لم ينتبه أحد إلى كلامهما رغم أنه كان أحياناً أقرب إلى الصراخ. عملتا بسرعة، وبسرعة صار المكان نظيفاً. عندئذ عمدتا إلى الطاولات فحملتا الأطباق والجاطات وكوّمتاها في المجلى، ووقفتا تغسلانها. كان صوتاهما مازالا يصلان إلينا من المطبخ، وهما تواصلان الحديث عن قذارة المكان وتتعجّبان من سعة المطبخ وقذارة المجلى. كانت أمك، كما تعلم، تجتهد في تنظيف البيت وأحياناً تستدعي شغالة لتساعدها، لكنها الآن سكتت وكأنها لا تسمع. المدعوون بقوا على كراسيهم وانخرطوا في حديث حول السلاح وحول التنظيمين التابعين لسوريا.

– خرا عليهن. ما بزمانهن عملوا عملية واحدة. بس بيدوروا بالجيبات.

كان جزء من الحديث أيضاً يدور حول كره أهل البلدة، الناكرين، عديمي المعروف. لا يكتمون أنهم يبادلونهم الكره ويشعرون بأن السلاح في أيديهم يجعلهم يتعالون عليهم. أهل البلدة بالنسبة لهم خونة مستترون، وما أن يستطيعوا حتى يسلّمونهم غنيمةً باردةً للعدو. تفاقم الحديث وأصبح أكثر صراحةً، كأنما نسوا أنهم في بيت من بيوت البلدة وفي ضيافة أشخاص من أهلها. كان يمكن رؤية الحرج

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

في وجه خالي، بينما انغمست سامية وأمها في حديث خاص. أما سامي، الذي اعتاد بالتأكيد هذا النمط من الكلام، فقد بقي يتابعه وأحياناً يدسّ بعض العبارات فيه لا تخرج عنه. أنهت المرأتان غسل الصحون وتنظيف المطبخ، وبدون أن نفهم كيف صار ذلك عادتا من المطبخ بصينية اصطفّت عليها كؤوس الشاي وإلى جانبها إبريق كبير. هرعت سامية إلى استلام الصينية منهما لكنهما مانعتا وبدأتا في توزيع الكؤوس التي صبّتا فيها شاياً محلّى سلفاً في الإبريق. لا أعرف كيف انقلب الحديث إلى شكر أهل البيت ومعهم أهل البلدة الذين، رغم وجود أفراد ناكرين، يستقبلونهم بكرم ومودة. أبو ثائر هو الذي استلم الكلام هذه المرة وتابعه الآخرون. الجميع جاؤوا بأمثلة من البلدة عن محبّة أهلها ووطنيتهم. امتدحوا كثيراً شبان البلدة المنضوين في تنظيمهم، قال أبو ثائر إنهم شجعان ومقاتلون حقيقيون. نُسي الحديث عن جشع أهل البلدة واستغلالهم للتنظيم في الأسعار الذي دار قبل هنيهة. سامي كان على راحته تماماً، وهو أيضاً قلب الكلام مع الآخرين. كان الكلام يبدأ من أبو ثائر ويتابعه عليه الآخرون. أبو ثائر في النهاية انتبه إليّ وسألني عن حالي. قلت له إنني أحضّر ماجستير في علم الاجتماع، وبدون أن يسألني شرحت له ماذا يعني علم الاجتماع، الأمر الذي وجده جديراً بالإصغاء. أدار أذنه إلي وبدأ يسألني، لم تكن أسئلته غبية لكنه في النهاية استنتج أنه علم قد يفيدهم في التنظيم ودعاني للانتماء إليه، الأمر الذي أبهج كثيراً سامي الذي صاح يشجّعني، لكني اعتذرت متحجّجاً بدروسي. لم أعرف إذا كان الاحتجاج كافياً لكن أبو ثائر قطع الكلام معي وأخذ

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

يقرأ شعراً لشاعر فلسطيني هو أبو سلمى. لا أعرف إذا كان قصده أن نشعر بثقافته، إذ إنه بعد تلاوة الشعر بدأ يتكلّم عن التاريخ اليهودي، ثم فاجأنا بالكلام في علم النفس؛ كان هذا، كما قال، اختصاصه في الجامعة التي تركها مبكراً ليؤدّي واجبه النضالي. مع ذلك قال شيئاً عن اللاوعي وعن تفسير الأحلام. منّي انتقل إلى سامية التي قالت له إنها متخصصة في الأدب الفرنسي، الأمر الذي لم يحر أمامه جواباً. سأل سامية عن كتاب **البؤساء**، وكان سامي يستمع إليها رافعاً رأسه محدّقاً فيها. الشاي انتهى فذهبت المرأتان إلى المطبخ وعادتا بعد وقت بصينية القهوة. هذه المرة لم تقم سامية ولا أمها لمساعدة المرأتين في المطبخ أو لحمل الصينية عنهما. بدا واضحاً أنهما جاءتا لهذا الغرض، وبعد أن يخرج الجميع ستبقيان مع سامية وأمك في البيت لمعاونتهما في ترتيب ونظافة البيت، أو للقيام بذلك عنهما.

عادت الكلاب تنبح بقوة وتتدافع أمام الباب. حنّ أحد الحاضرين إلى كلبه، كان طويلاً عريض المنكبين بشعر مسترسل على رقبتيه ويرتدي ثوباً مرقّطاً لكن مع صندل. خرج بعد أن أغلق الباب باحتراس وأطبقه دون أن يحدث صوتاً. ما أن صار في الخارج حتى علت أصوات الكلاب حوله. فتح الباب بهدوء ودخل ومعه كلبه، وأطبق الباب وراءه باحتراس أيضاً. عاد إلى كرسيه حاضناً كلبه الذي أقعى أمامه. انكمشت سامية والتفتت فوراً إلى حيث بال الكلب. صمت الجميع، المرأتان كفتا عن التنادي. أبو ثائر الذي شعر بذلك رفع صوته الذي وصل هادئاً وخفيضاً:

– طلّع الكلب.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

نظر المرقّط إلى كلبه ولم يقل شيئاً. سحب يده على صوفه فقط ولم ينظر ناحية أبو ثائر. عاد أبو ثائر إلى القول وبصوت أكثر انخفاضاً:
- طلّع الكلب.

تابع المرقّط سحب يده على صوف الكلب ولم يردّ، رغم أن العيون كانت جميعها عليه. نظرت إلى مرافقي أبو ثائر، لم يبدُ عليهم أنهم استنفروا، بقوا متفرقين كلاً في مكانه يتابع شرب قهوته، وينظر إلى الكلب، أو يتابع انزواءه. مال أبو ثائر إلى فنجانه ورفعه إلى فمه وأخذ يشرب، هذه الحركة كسرت الصمت. عاد كلٌ إلى انشغاله، خالي إلى الكلام مع سامية، الآخرون إلى الحديث وشرب القهوة، بقي المرقّط يداعب كلبه. لم يعد أبو ثائر إلى عبارته، انشغل في الكلام مع جاره. مرّ وقت عادت بعده الكلاب إلى التدافع على الباب. أخذ الكلب الذي شعر بذلك ينبح، أعاد نباحه الصمت والتأهّب، جرّه صاحبه إلى الباب الذي فتحه على مهل وألقاه خارجه. ابتسم له أبو ثائر وحيّاه بيده وهو يعود إلى مكانه. مرّ المرقّط على طاولة أبو ثائر وصافحه، انبسط وجه خالي وكذلك وجه سامية وامرأة خالي، سامي اغتبط وعلا صوته. لم يبدُ على أبو ثائر أنه خرج من امتحان، كان لا يزال يحدّث المرقّط الذي انحنى عليه وضحكاتهما مسموعة وإن لم تكن عالية. غرق الجميع في الحديث لكن تلفون أبو ثائر رنّ. وضع السماعة على أذنه وراقَ وجهه وهو يسمع. لم يطل الأمر. وضع السماعة وقال إنهم كنّسوا تماماً مكاتب التنظيمين المواليين لسوريا. "أوقفوا الجميع" قال. نهض ونهض رفاقه وبسرعة انسربوا من الباب. هاجت الكلاب تحت قبل أن يغادر الجميع، وصلت

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ضجة قبل أن تذوب فجأةً ويصفو الجو.

كنا أربعتنا في القاعة بين الطاولات الثلاث وعليها الصواني وفناجين القهوة وجاطات الفاكهة، والقشور والنوى، قشور التفاح ونوى المشمش والكرز في الصحون. كنا صامتين، اكتفينا من الحركة والأصوات والتأهبات. فرغ الوقت ما أن ابتعد النباح. كنا مستنفرين، لا طاقة على مراجعة ما جرى. أمك التي ترتدي فستاناً مخملياً طويلاً وضعت رأسها بين يديها. خالي نزع كرافاته وانطرح على الكرسي. كانت عيناه العسليتان شبه خامرتين ووجهه متهدّلاً قليلاً وبدا كأنه يدور في جسده الضخم ويستطيع بصعوبة إلقاءه على الكرسي. سامي وحده كان يهمّ بالكلام، لكنّ صمت الجميع انقلب ضده، ظلّ على كرسيه بعيداً قليلاً عنّا ولم ينضمّ إلى طاولتنا. سامية جلست بين أمها وأبيها، ولأنها كانت تنفعل مع كل دقيقة ومع كل حركة انتهى بها الأمر إلى تعبٍ حقيقي لبس وجهها. سامي، الذي انتبه إلى انفراده، عاد وجلس قبالة سامية، وعبثاً بحث عن عينيها، لكنها كانت شاردة ولم تبادله النظر. كانت ترتدي بلوزة معرّقة بالزهري والأزرق على تنّورة قصيرة نيليّة. ردّت شعرها الذي عقدته كذيل الحصان. كانت هي وأمها جميلتين، فيما كان خالي بذقنه المربعة وشعره الكستنائي مهيباً جداً. أنا لم أبالِ، بقيت في الجينز الكحلي والتيشرت الأبيض. لم يكن أبو ثائر بثوبه الكاكي أكثر أناقةً مني. مرافقوه أيضاً كانوا في ثيابهم العسكرية المدعوكة كأنما يتعمّدون ألاّ يكونوا لائقين. أمك، كما تعلم، مرتّبة ونظيفة، لكنها لا تجعل من ذلك ديناً، خالي كذلك، لكن أن تبول الكلاب في المنزل كان

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

فوق طاقتهما. بدت الرقعة التي بال الكلب فيها، حتى بعد تنظيفها، شبه محرّمة. بقينا الأربعة صامتين. سامي، الذي سايرنا في صمتنا، شعر أنه بذلك يزيد فيه. لم يصبر عليه كثيراً، فرك يديه ببعضهما بعضاً وألقاهما على الطاولة، ولمّا لم يجد كلمة مناسبة قال: "كانت حلوة" بالطبع كان يقصد المأدبة. مرّت الكلمة عابرة ولم تلفت أحداً.

"كانت حلوة" أعادها. لم نكن قد خرجنا بعد من الموضوع لنحكم عليه. لم يجب أحد، كانت العبارة هكذا بلا معنى، لكن سامية بدت وكأنها عصرت روحها. شدّت يديها على رأسها كأنها تكافح كلمتها، وفجأةً انطلقت منها كالرصاصة:

– وحوش.

احتجنا إلى وقت لترتسم الكلمة في رؤوسنا، لكن سامية التي وجدتها أعادتها هذه المرة بحنق أقل:

– وحوش.

لم يصمد سامي للكلمة، علته الحيرة، جمع نفسه وكأنه يحاول الهرب، أدار شيئاً ما في رأسه وبدا كأنه وصل إلى شيء. وضع مرفقيه على الطاولة وقال بحشرجة اختفت مع الوقت:

– ليش وحوش؟ لأنهن احترموكن وقبلوا عزيمتكن؟ ليش وحوش؟ قولي لي حدا تصرّف غلط؟

لم تكن سامية قابلة للنقاش، لم تفكّر في الأمر على هذا الشكل، بل لم تفكّر فيه بالمرة. كانت تغلي ممّا تراكم في داخلها. لم تجب أمها التي في العادة لطيفة ومتساهلة وميّالة إلى المصالحة، رفعت رأسها وقالت بنفس لهجة سامية واقفةً هكذا وراءها:

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

– ايه وحوش.

خالي، الذي أراد أن يكون وسيطاً، قال بصوتٍ فاتر:

– مش وحوش، بس مش لايقين.

سامية تبعته:

– بس مش لايقين. هودي خريوا علينا. بيخروا محل ما بياكلوا.

سامي الذي قرّر أن يدافع، وأن لا يترك سامية تأكل رأسه:

– خريو علينا! لأنن جابوا كلابهن! كل الناس عندها كلاب. وبعدين هودي مش أيّا حدا، هودي زعما البلد، كل شي بإيدهن.

سامية كأنما استيقظت على أمر:

– زعما البلد! شو بخصّنا. يتزعّموا، نحنا شو دخلنا؟

سامي الذي صمّم على أن لا يخرج خاسراً، وأن يصمد أمام سامية التي تفاجئه دائماً:

– شو بخصنا! منين جبتي هالحكي؟ إنت عارفة إنن ماسكين كل شي، ومصالحنا، ايه مصالحنا، بإيديهن. نسيتي إنو ما فينا نستغني عنهن؟ وبعدين شو فيها إذا نبح كلب؟ إذا بوّل كلب؟ هيه القصة. هني نظفوا. لو ما كانوا لايقين ما جابوا معهن نسوان تنظف.

كلام سامي الذي كان عالياً لكن بلا صراخ سقط على هياج الجميع وأحبطه. ساد سكوت بعد أن انتهى وبدا أن الموضوع سُحب وحلّ محله فراغ فعلي. ارتبكت سامية وامرأة خالي وانكفأتا وبدا على سامية خصوصاً أنها تدير شيئاً في رأسها. خالي انبسط وجهه لهذه النهاية، وامرأة خالي لم تفكّ عقدة وجهها. أنا لم أكن مسروراً لهذه النتيجة، لكني لم أتكلّم. فجأةً فتحت سامية فمها وأطلقت العبارة

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

التي أمسكتها طويلاً في داخلها، قالتها وكأنها ترميها في وجوهنا:

– مصالحك إنت. إيه مصالحك. شو خصّنا؟

كنّا جميعاً على الحدّ. عبارة سامية وضعتنا على الحدّ. لم يجرؤ أحد على أن يخطو بعده، حتى سامية أطلقت جملتها وسكتت فجأةً، بدتْ كأنها تتراجع عنها. سامي لم يعد قادراً على الهجوم، صار عليه أن يتراجع بانتظام، وبالفعل أجاب بهدوء:

– مصالحي هي مصالحك. هيي مصالحنا كلنا.

قالها سامي بصوتٍ منخفض وراعش كأنه يجسّ مريضاً. داوى سامي الجو وابتلعنا جميعاً كلامنا. لكن سامية لم تطق.

– مصلحتك إنت. نحنا شو مصلحتنا إنن يخروا علينا؟

قالت ذلك بصوتٍ جامد وكأنها تلقي حجراً. نحن وإنت. كانت تفصل وتضع سامي في الخارج. سامي انكسف، ارتاع دقيقةً قبل أن يقول بما يشبه التوسّل:

– شو أنا وإنتِ. كلنا واحد.

– هون نحنا مش واحد. هون فيه أنا وإنت، نحنا وإنت.

كان كلام سامية يسدّ على سامي أي مهرب، لم يكن يعرف ماذا سيحدث إذا تحرك خطوةً إلى الأمام أو الوراء، وقع في حيرة لاحظناها جميعاً. وقف وقال إن لديه موعداً، سحب يديه عن الطاولة واستأذن وخرج. بعد ذلك انفرج الجو وقال خالي وهو يجمع نفسه:

– زدتيها.

لكن سامية التي استنفدت ما عندها قالت بدون رغبة في النقاش:

– لأ ما زدتها. شو ضروري نكون واحد بكل شي؟!

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

ثم فاجأتني بأن أشارت إلي:

– خليك ساكت، ما تحكي ولا كلمة، كأنك مش موجود. ما هوّي صاحبك كمان.

لم يعد سامي في الليل، وفي الصباح غادر كعادته إلى بيروت. مرّت خمسة أيام لم يتّصل فيها، كان في وسعه أن يتحجّج بعطالة التلفون، لكنه في العادة كان يجد طريقة ليتّصل. جاء السبت وانتظرناه في البيت عصر اليوم، كما جرت العادة، لكنه لم يأتِ. انفتح الباب عليّ وكنت ممدداً بحذائي على السرير. سامية في الباب في روب منزلي وهي تقول لي بحزم يشبه الأمر:

– صاحبك، روح جيبو.

وبعد تردّد قصير:

– إذا ما فهم، قلّوا سامية بدها تشوفك.

دخلت إلى الممر الممتد على جانب الحقل المنبسط أمام بيت أهل سامي ونظرت، في طريقي، إلى أجمة الأشجار المنوّعة الواقعة على يميني فرأيت سامي واقفاً بين حماره وعنزته وكلبه. كان الأربعة مصطفّين وكأنهم يستعدون لالتقاط صورة. مشيت بين الأثلام متحاشياً أن أدوس على الزرع، وصلت إليه. أثناء ذلك كان الصف الواقف فيه قد تخربط وهو يسير باتجاهي. قال لي:

– أكيد مش جايي من حالك!

لا أعرف إذا كنت عجّلت بقولي له:

– سامية بدها تشوفك.

كان في مشّايته وبيجامته المقّلمة، فقال لي:

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

– استنّى هون. جايي.

لم يطل الوقت دقائق وعاد في سهاريان أزرق، وما زال يبكّل حذاءه. مشى وسرت معه.

استقبلته سامية على الباب وقد شعرت بحضوره. كانت هي الأخرى رفعت شعرها وارتدت انسامبل نبيذياً، انبسط وجهها ولبسته بسمة تركّزت في عينيها:

– أهلاً بالشارد. وين لقطك غسّان؟

– كنت بالبيت، عمفكّر زوركم.

– عم تفكّر بس يا قاسي. أخذت على خاطرك. كيف بدي عيش معك وإنت ما بتحمل كلمة. هلق جيت، فوت.

– فيه كلمة وكلمة. بنحكي بعدين. خليني فوت.

دخل وارتمى على الكنبة. كان في الغالب يتخيّل عتاباً ويهيّئ أجوبته، لكن سامية تركته ودخلت إلى غرفتها. عادت بعد وقت ترتدي فستاناً زهرياً وتحمل صينية القهوة. تركتُهما إلى غرفتي ومن هناك كنت أسمع ضحكهما.

لم تكن الضحكات مدوية لكني كنت أنكمش لدى سماعها. عندما خرست شعرت أن الهواء ما زال يحملها، تركت فيه شيئاً أشبه بتنفّس صعب. خُيّل إلي أن هذا الصمت يحمل طبعات قُبَل، يزفرها الهواء ويمسحها في سكوتٍ مطبق. عادت إلى الجو ضحكات مغرّدة. وجدت نفسي أنهض وأفتح باب غرفتي وأتقدم كمن يمشي في نومه وراءها. خرجت من البوابة وأنا أتبعها. وجدت نفسي على باب بيتنا، سبقتني الضحكات واختفت في الشجرة. دخلتُ.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كانت الضحكات تختنق داخل الأغصان وتتحول إلى غشغشات مقبوضة. وقفت على قبر أمي وهززت الجذع، سقطت ثلاث أوراق عليّ، شجيرة الرمان تتكلّم وحدها. كان الليل قد خيّم وسكن وسكنت فيه بلاطة الضريح والكلمات المنقوشة عليها. شعرت بالعتم يتسرّب إلى جلدي وإلى شعري. وقفتُ بين القبرين الجاثمين في الليل، لكن ريحاً لم تتحرك. آيست من أن أسمع شيئاً. عبرت إلى فناء البيت وفتّشت عن المفتاح الذي لم أعثر عليه بأصابعي. تحرّك الهواء قليلاً وسمعت حفيف الأغصان. عدت إلى البحث عن المفتاح لكني لم أجده. نظرت إلى الباب، كان يبدو مصبوباً في الظلمة. عزمت على الخروج لكن أنظر، ثمة عصفور قفز إلى بلاط الفناء، عصفور صغير كأنما سقط من عش، أخذ يترنّح على البلاط بدون أن يجد سبيلاً لرفع جناحيه. التهيت بالنظر إليه محاولاً أن أفهم ماذا يعني وجوده في هذه اللحظة. كنت أتوقع رسالة لكنها لم تأت. وقفت فيما كان العصفور ينجح في رفع جناحيه، لكن الهواء لا يحمله فيعاود السقوط ويتقافز ثانيةً على البلاط. سيقدر بعد قليل على أن يبقى معلّقاً في الهواء الذي يطير به إلى الغصن، كان هذا مسعفاً، لكن أنظر، المفتاح في الباب، المفتاح يلمع في الباب، يكاد يضيء، أديره وأدخل. أضغط على الزر لكن الكهرباء مقطوعة. ليس في الداخل ما يلمع سوى المرآة وراء طاولة الزينة. لا أتميّز الأشياء على الطاولة لكني أسمع صوتاً قريباً، قريباً جداً، مني يسأل كما لو كان يوشوش:

– وينك. ليش مش عم تجي. مين عم يقسّيك. بشرى، قلت لك

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

شو بدّك ببشرى، بعدها بدها تجوزك بنتها. يسرى، شو بدك بيسرى، حيّة متل أمها.

كان بودي أن أقول لأمي إن يسرى ميتة وترقد جنبها.

– يسرى ماتت.

– مش مظبوط. عميضحكوا عليك. انتبه لها. متل أمها حيّة.

– ماتت يا أمي.

– مش مظبوط. سامية بتحبّك. سامية إلك، ما تتركها.

– سامية مخطوبة، وهلق كانت مع خطيبها،

– مين قلّك هيك. سامية إلك. ما إلك غيرها.

كان القرط يتوهّج وهي تتكلم. ليس وحده الذي يتوهّج، المرآة أيضاً، المفتاح في الخزانة، أدوات الزينة؛ كلها تتوهّج غضباً. الصوت كان مشروخاً ويخرخر في الحنجرة. لا أعرف من أين يعرف الموتى وماذا يعرفون. لا شك أنهم يثقون كثيراً في أرواحهم، الأرواح التي لا تقبل شيئاً لا تريد معرفته. هي المرة الثانية التي أقول لها إن يسرى ماتت وهي لا تريد أن تعرف. حتى الموتى لا يمكن أن نصدّقهم، إنهم يكذبون علينا أو على أنفسهم، لكنهم يكذبون. الأرواح أيضاً تكذب، الحقيقة ليست ملكها. حتى الموت ليس حقيقياً، حتى الروح بلا حقيقة.

كانت تريد أن تتكلم أكثر لكن الغضب الذي تملّكها استنفذ طاقتها. لذا لم أُفاجأ بأن المرآة أخذ بريقها يخفّ وينحسر والمفتاح أخذ يخمد شيئاً فشيئاً وأدوات الزينة أخذت تنطفئ واحدة بعد الأخرى. بقي القرط يخرخر، هذه المرة كان يجتهد ليلفظ كلمة

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

"خالك" التي تضيع في خرخرته. لا أعرف ماذا كان يريد أن يقول عن خالي. خيّل لي أنه يقول إنه يسامحه، لا أعرف على ماذا. لا أدري ماذا كان يحصل بين الأخوين في طفولتهما، ربما كان شجاراً يستطيع خالي الأكبر عمراً والأقوى جسداً أن يربحه بسهولة. لا أعرف ماذا يحمل الموتى معهم غير أحقادهم، إلى كم من الزمن يحتاج الحقد ليبرد أو يزول؟ لا شك أنه يحتاج إلى أجيال.

تركت البيت بعد أن خمد كل شيء حولي وبدأت أخاف. تسلّلت من البناية وقصدت بيت خالي فوراً. على البوابة وأنا أطرق الباب عادت إلى رأسي ضحكات سامي وسامية التي سمعتها قبل أن أغادر، وهذه المرة أيضاً انكمش قلبي. دخلت مسرعاً بدون أن ألقي نظرة على ما حولي لكني سمعت سامية تناديني: "غسّان" رجعت خطوتين إلى الوراء فرأيتها جالسة بروبها الأزرق وشبشبها المحاط بفصوص وأشرطة فيروزية وزرقاء. ابتهجت لرؤيتها هكذا، لكنها كانت أمام فنجان القهوة وعلى الكنبة في الزاوية مثال الوحدة، لذا ترددت في سؤالها عن سامي، لكنها من دون أن أسال قالت:

– سامي مشي من ساعة. كمان تخانقنا.

– كيف كيف؟

– ولا شي. رجعنا نحكي بالعزيمة ورجع يحكي عن عظمة أبو ثائر. أنا خلص ما عاد يهمني أبو ثائر، ما بدي منّو شي. خلص ما بدي زعامة ولا جاه. بيكفيني تلاميذي.

– كمان أنا ما بدي شي من أبو ثائر وغيره. من يومين قتلوا واحد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ع المحطة لأنن اختلفوا على تنكة بنزين. وين القاتل، متل فصّ ملح وذاب.

– عفاك بدي ياك تقولن قدام سامي. حاج ساكت.

اقتربت من سامية وجلست إلى جنبها. كانت أمام فنجان القهوة الذي حملته بين إصبعيها وسحبت سيجارة من علبة المارلبورو وقدمت لي واحدة، أخذتها وتركتها تولعها لي. سألتها عن أبويها قالت إنهما في سهرة عند جار قريب واقترب وقت مجيئهما. كان التلفزيون أمامنا وحملت سامية الريموت وتوقّفت عند محطة تبثّ مسلسلاً عربياً. تطلّعت لكنها عادت إلى الريموت وتوقّفت هذه المرة عند فيلم أجنبي. لم تطل وقفتها، وضعت الريموت جنبها ورمت شعرها ووجهها على المنضدة. سمعت من تحت وجهها نشيجها الذي صار يشتد وتعلو معه تحسّراتها. أحطتها بذراعي ورفعت رأسها عن المنضدة فرمته على عنقي وكتفي. انسدل شعرها على عنقي وصدري فارتجفت لكني كظمت ارتعاشي. لم يطل نشيجها، سرعان ما أوقفته وجففت عينيها بالكلينيكس، لكنها تركت وجهها على عنقي وشعرها على صدري هنيهةً قصيرة، قبل أن ترفعهما وتبتعد عني إلى آخر الكنبة.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

سامية

لا أريد أن أتشاجر مع سامي، لا أريد بالضبط أن نتخاصم بخصوص أبو ثائر. يمكن لسامي أن يحبه أما أنا فلا يعنيني، إنه مجرد واحد يمر تحت النافذة ولكل واحد منا أن يستحليه أو ينفر منه. سامي يريده أن يكون بين خصوصياتنا، وأن يدخل بيننا. ليس وحده الذي يدخل، هناك آخرون كثر يحضرون بيننا كلما التقينا. أفكر أن سامي لا يستطيع أن يحضر بدونهم. إنه لا يقدر أن يكون وحده أو معي وحدي. أتساءل إذا كان له داخل. مع ذلك أنا أحبه. حين ينسى كل هؤلاء يستطيع أن يحب. في لحظات كهذه يقدّم شيئاً من نفسه، من روحه. أعرف عندئذٍ أنه يحبّني. حين يعانقني أشعر أنه يريدني كلّي وأنه لا يرتوي مني ويطلب دائماً أكثر. عندئذٍ أرغب أنا في أن أعطيه أكثر ما لدي، أكثر ما أستطيع، أسلمه نفسي وأتركها تتداعى فيه. أحب أن أضمّ عوده إليّ، أن أملأ به صدري. أحب قامته الطويلة والنحيلة، سمرته الحادقة وشفتيه الناضجتين وعينيه النافذتين. أحببته بالتدريج، لم أحسب أن هذا سيحدث. كان بالنسبة لي، مع كلبه ومعزاته وحماره، غجرياً نتفرج عليه لكننا نخاف أن يلمسنا. اليوم

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أحبّ كثيراً أن يلمسني، أغضب منه لكني أشتاق إلى لمسته. لمسته تقول لي ما لا يستطيع قوله. أحسّ أنها تحوي إحساساً بل وأفكاراً أكثر مما يحسن قوله. أراهن على داخل طفلٍ وحنون، لكني فجأة حين أجده يستضيف في داخله أشخاصاً لا اعتبار ولا قيمة لهم، أشخاصاً غلاظاً لمجرد أن لهم مقاماً ونفوذاً، أتساءل كيف يكون إن هو توصّل إلى أن يكون أبو ثائر أو بلغ منصبه، هل ستبقى له رقته؟ هل سيبقى للمسته تأثيرها؟ إنه لا يفسح فقط لأشخاص من الخارج بل ويستعير لغتهم، وعمّا قليل سيستعير قيمهم ومشاعرهم، وسيغدو جلده خارجياً، سيصبح بكامله برّانياً.

أفكّر أحياناً بغسّان. كان منذ دخل إلى بيتنا موضوع شفقتنا كلنا. كان حبه والعطف عليه معيار الجودة. أستطيع بذلك أن أكون فتاة طيبة وأتمتع بحب والديّ بل وسخائهما أحياناً. كان بالنسبة لي القريب الضعيف، القريب شبه المريض الذي لا نخسر إذا أعطيناه من رعايتنا ونزداد حباً لأنفسنا لأننا فعلنا ذلك، ونظل نشعر أن حبه يخالطه دائماً شيء من الانتقاص. هو ليس حباً كاملاً، بل هو حب لضعفه ونواقصه وليس له تماماً. كان يشعر بذلك فيتصرف تجاهنا وتجاه والدينا بعرفان واحتياط وقدر من الخجل. كنا بطبيعة الحال نحس أن سلوكه يقيّدنا ونريده أن يكون طبيعياً أكثر وأقل لياقةً، ورغم امتعاضنا كنا لا نستطيع أن نتخطاه. وجوده في البيت جعلنا جميعاً أقل طبيعيةً. في وجوده ليس في وسعنا أن نكون وقحين أو عنيفين، فقد كان، من دون أن يدري، معياراً لنا. عاش معنا لكنه لم يكن منّا، على الأقل في طفولتنا. كبرنا معاً ومع العمر قلّ حرجنا

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

منه وحرجه منا. أنا التي كنت من عمره تقريباً لم يعد في وسعي أن أبقى أماً صغيرة له، ولم أعد مهتمة بأن أجاري والدَيّ في عاطفتهما تجاه اليتيم الخارج من الكارثة. صرنا نتقاسم أشياء كثيرة: الكتب، الأفكار، الشواغل والآراء. هكذا صرنا ندَّيْن أنا وهو، فيما صار هو مع الوقت أخاً أكبر لأخي فؤاد الذي تعلّق به. صار غسَّان منا وليس منا، كان في الوقت نفسه أخاً ورفيقاً. أنا أشعر أحياناً أن هذا الازدواج يحيّرني، بل أحسّ بحرج حياله. لا أعرف إذا كان علي أن أذهب بعيداً في أخوّته أو أذهب بعيداً في رفقته. أظن أنه يشعر بحرج مماثل. منذ خطبت سامي ابتعد قليلاً كأنهّ أحسّ أنه لم يعد قادراً على أن يتأرجح بين الدورين، أو ربما شعر أنه يتركني لسامي إذ أن خطبتي له تحرمه من أحد الدورين. الغريب أنه مع خطبتي لسامي صار رفيقاً أكثر منه أخاً. صحيح أنني ألجأ إليه في مشاكلي مع سامي، لكنني هكذا أمنعه من أن يبتعد، أبقيه قريباً مني صديقاً أكثر منه أخاً. أحسّ أحياناً أنني حينما أبكي على صدره إنما أبكي من أجله، أبكي ليراني أبكي وليتقاسم همومي. اليتيم الذي كنا نتصدّق عليه بشفقتنا، صرتُ أحفّزه ليجود عليّ بشفقته، لا أعرف أين ينتهي ذلك. مهما كان فإن غسَّان يبقى موصوماً بقصة لم يفكّ لغزها، إنه العقب البائس لزواج الحية والشيطان، وريث الجريمة وابن الجريمة. أفهم الآن لماذا يتجنّب أن يتحيز لشيء، بأي صفة يفعل ذلك؛ بأي حق يفعله. كل الضجيج حول مأدبة سامي وكل ما تلاها، لم يفُه بكلمة. أريده أن يتكلم، أن لا يبقى منصوباً حيث قتل والده أمّه، أريده أن يغادر هذا الحدّ. هو يظل تحت هذا العبء، يحمله على كتفيه ولا يتحرّر من

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ثقله. أريده أن يرميه خلفه. أقول له: "قل رأيك، لا تجبن عن قوله"، لكنه لا يجازف. كيف يمكنني أن أحرّره، أن أُدخلَه في الصراع، أن أُزيحه عن الحدّ. أفكر أنني لن أستطيع، أنّ هذا لَيس في مقدوري. أفكّر أنني لو كنت مكانه لما جازفت بكلمة، لما حكمت على أحد، لما انتصرت لجهة. لو كنت مكانه، لكنّي لست مكانه. القليل الذي يُقرّبني إليه، القليل الذي يلحقني من قرابته، يكاد يُخرسني. والدي لا ينسى الحادث الذي مرّ كالزلزال، الذي أطبق على العائلة كلها، فكيف أطلب من غسّان أن ينسى؟ كيف أطلب منه أن يتكلم؟ بالطبع لن يؤمِّنَ له أحد لأنه ابن قاتل، لن تحبّه امرأة لأنه ابن قاتل، لن يحمل فقط جريمة أبيه وإنما أيضاً سمعة أمه التي تلطّخت بدمها. هو أيضاً سيبقى يَصرّ على أسنانه، بالتأكيد لن يفتح قلبه لأحد، لن يثق بأحد، لن يحب ولن يكره، فليس من حقه أن يدين ولا أن يؤيّد. إنه حقٌّ بشرٍ عاديين، أما هو فليس له أي حق، وإذا تكلّم مثل الآخرين فسيبدو مغتصبَ حقوق وسيبدو حتى في هذا ابن قَتَلَة. أمه التي اختنقت بين أصابع أبيه، أمه القتيلة، ستنضمّ هكذا إلى قبيلة القتلة، ستشارك أبيه في الذنب. لقد استدرجته ليقتلها؛ سيكون هذا ذنبها. لن ينجو أحد من التهمة، سيكون الجميع مشبوهين ومدانين، سيكون الإثم في دم الجميع وفي خلاياهم وفي أفكارهم ونواياهم. لقد تصرّف غسّان كمنبوذ، بدلاً من أن يدينه الناس أدان نفسه، أو على الأقل تصرّف كمدان وكمحكوم.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بشرى

كبر غسّان وأنا خسرت ابنتي. فكّرتُ فيه كعريس لها. لا أعرف لماذا فكّرتُ هكذا. أحياناً أظن أن أفكاري هي التي سبّبت موتها المبكّر. أحياناً أحسّ أنني أتحمل مسؤولية موتها، لا أطيق نفسي عند ذلك. أقول إنني امرأة سيئة، لكني لن أتغيّر ولن أصبح شخصاً آخر. أنا امرأة لا تستطيع أن تقتلع ضغائنها من قلبها، ضغائني حية على الدوام. منذ تزوج مسعود عايدة لم أطقها. كانت ابنة الدكنجي وليست مناسبة لتكون كنّةً لنا. مسعود بِكر العائلة وزينة شبان البلدة يقع في شركها ومع ذلك لا تستحي، أمام الجميع تقول إنها لا تحبّه؛ هي ابنة الدكنجي الذي قسّم غرفتهم الوحيدة إلى بيت ودكان؛ ابنة الدكنجي التي لم نكن نرضى بأن نلعب معها، حين كانت تترجّانا، ونبتعد عنها. أمهاتنا يوصيننا بذلك لئلاّ تعدينا برثائتها. ابنة الدكنجي لا تستحي من القول بأنها لا تحبه، وتسخر مني في حضور الناس وتجعلني أغرق في خجلي. أخي مسعود الذي تتهافت عليه بنات البلدة تقول له إنها لا تحبه. تزوّجته لأنه طاردها وصرف عنها بقية الشبان، لم يتجرّأ أحد على منافسته. كان الأجمل والأغنى! من يصل إلى ابن الشربيني؟

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

من يسبقه في وجاهته وأملاكه وبساتين عائلته؟ لم تعرف الخرقاء حسن حظها، لو عرفت لشكرت وتباهت. لكنها قالت بفم ملآن إنها لا تحبه. لم تخفْ من غضبه، تحدّته في وضح النهار. كُرهتها أنا، وكرهناها كلنا. كانت تسمّيني الجرّة ولا تراعيني، أمام الجميع تناديني الجرّة. أحبّها مسعود لكنه تزوجها ليكسر شوكتها، تزوجها ليذلّها، فقط لأنها ناكدته ولم تستجب له. مع ذلك بقيت عالية الرأس، ركبت رأسها وتحدّته. "لا أحبك" قالت له ابنة الدكنجي. كنت عندها في بيته، رأيته يهجم عليها ويصفعها، تلقّت الصفعة، رفعت يدها إلى خدّها وكبست عليه، وباليد الثانية ظلت تشاور وأعادت عبارتها، "ما بحبك، عمري ما حبيتك"، ولم يتأنَّ هو، عاجلها بصفعة ثانية. كنت واقفة أنظر ولم أتدخّل، تمنّيت أن يدوسها، أن يهينها إلى آخر ما في الإهانة. كنت مسرورة لأنها تلقى جزاءها. لم أتكلم لكني في قرارتي كنت أحرّضه، في قرارتي كنت أقول: "أخرسها. خلّيها تخرس". لم يكن مسعود يحتمل من امرأة أن تقول له "لا أحبك"، فكيف إذا كانت امرأته؟ بعد الصفعة الثانية حضنت وجهها بين يديها وصرخت بفم ملآن: "ما بحبك. وحش. حيوان" كانت تصرخ بلا انقطاع: "وحش، وحش..." فتحت النافذة ووقفت تحتها تصرخ: "يا عالم تعو شوفوا الوحش". لفّ يده على عنقها وجرّها إلى الداخل، لكنها بقيت تصرخ: "وحش". أغلق فمها بيده فعضّته وكادت تنهش لحمه. ألقاها على الأرض وطوّق عنقها بيديه. كانت تنتفض وترفس تحته لكنه استمرّ يعصر عنقها بين يديه. كنت واقفة ولم أقترب، جمدتُ في مكاني، كان في استطاعتي أن أتدخّل، أن

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أرفع يديه عنها. أظن أنه انتظر مني أن أفعل، لو اقتربت لكان شال يديه عنها، لو صرخت به من مكاني لكان رفعهما عنها. كان غاضباً لكنه لا يريد أن يذهب إلى الأخير. ارتخت يداه عنها فعادت تصرخ "وحش" كنت واقفة وبقيت في مكاني، انتظرت أن يعود فيشدّ على عنقها وهكذا فعل. هذه المرة صار محكوماً بأن يواصل حتى رأيتها تجحظ وترتخي بين يديه وتقع ميتة. عندما رآها تقع ارتبك وحاول أن ينعشها، بفمه، بيديه على صدرها، لكنها كانت ماتت. بقيت واقفة حتى عندما رأيته يضطرب وينهض عنها ويرمقها بخوف. تركته يقصد الباب ويخرج، ومن ذلك الحين لم أره.

بعد شهر سقطتُ في البانيو على يدي التي تورّمت، كانت سقطة خطرة ونجوت منها لكني علمت أنّ هذا كان بحسنة عايدة وأن ما جرى كان عقاباً. مع ذلك لم أندم. لا تستحق ابنة الدكنجي أفضل مما لقيته، لقد تسبّبت به لنفسها. جاءها الحظ لكنها كانت ناكرة وحمقاء وأوصلت نفسها إلى هذا المصير.

بعد ١٥ سنة سقطت يسرى على رأسها. لم تنجُ، نزيفها الداخلي لم يتوقّف. بقيت أياماً جنبها أسمع شخيرها. ماتت أجمل صبايا البلدة، فهمت فوراً أنه عقاب. وقفت وأنا أرى مسعود يخنق عايدة ولم أتحرك لأرفع يديه عنها، لا بدّ أن هذا كان عقاباً. لقد خسرتُ ابنتي؛ كان هذا هو انتقام عايدة. لا بدّ أنها في قبرها سعيدة الآن. لا بدّ أنها فعلت ذلك لتبعدها عن ابنها. شعرتْ بالتأكيد بتقاربهما، لقد كسرتْ قلبي وأظلمتْ حياتي. أنا الآن لا أغفر لها ما فعلت بي. أكرهها، أزداد كرهاً لها لأنها سرقت مني أعزّ ما عندي، أخي مشرّد بسببها وابنتي،

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

حبة عيني، ماتت. لقد دمّرت حياتي. منذ ذلك الوقت لم أستمتع بيوم، لم أعرف فرحاً واحداً، أغلقتُ بابي عليّ وشحّ بصري. أنا تقريباً عمياء ولا أتوقف عن البكاء. كيف لا أكرهها ولو أمكن تمنيت لها أن تموت مرةً أخرى. لن أسامحها وستلقى عقابها. منذ ذلك اليوم كرهتُ أيضاً إبنها، كرهتُ لحمي ودمي وكرهتُ نفسي أيضاً، ولا شيء عندي الآن سوى الكره؛ الكره الأسود القاتم الذي يرقد على قلبي ويكاد يخنقني.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الخال جواد

أحسن أحياناً أن ابنتي سامية أتت طبق عمّتها عايدة. ليس الشبه في الصورة فقط، الحاجبان المرتفعان، العينان اللوزيتان، الأنف الصغير مع طبعة الذقن ورقّة الخدّين. الشبه أكثر في المزاج والخلق، لسامية طباع عمتها، السرحان، المزاج الفائر، العصبية المباغتة. أخاف أن يعيد القدر دورته فيكون حظ سامية مثل حظ عايدة. مثلها قبلت تحت الضغط خطيباً تريده ولا تريده، وليس واضحاً، حتى لها نفسها، شعورها تجاهه. ليس سامي شبيهاً بمسعود، كان مسعود بقامته ووجهه المنحوت أشبه بفتيان السينما. سامي الذي ليس قبيحاً له مسحة بدوية، رغم اعتنائه بمظهره لا تزال له هيئة الغجري التي كانت له في طفولته. ثم إن سامي ليس ابن بيت ولا سبب عنده ليفخر بأبيه الذي بدأ حياته راعياً. صحيح أنه إنسان توفّق في حياته وصارت له أملاك وماشية، لكنه ظل منعزلاً في بيته، وظلّ الناس يرون فيه أضحوكة أكثر من أي شيء آخر. لقد تجرّأت عايدة على مسعود، لم تكترث لعائلته ولا أملاكه ولا وسامته، كانت منذ طفولتها لا تقيم وزناً لأحد، منذ طفولتها لا تجد أحداً أفضل منها، ولا تبالي بأن تضع

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كل واحد عند حدّه أيّاً كان ومهما كان. كانت جميلة لكنها تبقى ابنة الدكنجي. لم تكن تخجل بذلك، لكنها لا تطيق أن يعيّرها أحد به. تكلّمت البلدة كلها عن طردها لروزيت، ابنة رئيس البلدية، من بيتها لأنها عيّرتها به، أو على الأقل اعتبرته موضوعاً للسخرية. كانت محبوبة من الجميع وتصادق فتيات من طبقتها وغير طبقتها. ليس مسعود أول ابن ثري يلاحقها، سبقه إلى ذلك شبان كانت تردّهم ولا تكترث بهم. الوحيد الذي أولته اهتمامها كان مثلها ابن صاحب دكان وإن يكن أكبر وأهم من دكان أبيها. وسيم، رفيقها في المدرسة، ربما هو الوحيد الذي وضعته في اعتبارها وحاذرت بأي شكل أن تستفزّه بل وسمحت له، على مضض، أن يمازحها وحتى يسخر منها. كنا نظن أنهما سيبقيان معاً في المستقبل لكن وسيم سافر إلى فرنسا ليكمل تعليمه واختفى هناك؛ قيل إنه تزوج فرنسية. وحين علمنا أخذ عايدة السهوم وبقيت أياماً سارحة حتى نجحت في التغلّب على نفسها وعادت إلى طبيعتها. كان مسعود بالتأكيد مرموقاً، وهي في البداية تلاعبت به لكنها لم تحد بصرها عنه. أرادت أن تكسر شوكته لكنها لم ترفضه، كانت هذه معركة بين اثنين عنيدين: هو يلاحقها في البلدة وفي بيروت وفي كل مكان تذهب إليه، وهي متنبّهة إليه واعية إلى أنه وراءها دائماً. كانت مسرورة بذلك لكنها لا تريد لابن الشربيني أن يراها فقط ابنة الدكنجي. كان يتصدّى لها في كل مكان، وهي تتجاهله وتضطرّه إلى أن يعلن ذلك أمام الآخرين؛ هذه بالتأكيد مكافأتها التي تسعى إلى الحصول عليها. البلدة كلها تتكلّم عن ابنة الدكنجي المتباهية على ابن الشربيني. البلدة كلّها

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

تتكلّم عن مسعود الشربيني الذي يترك نفسه ألعوبةً لبنت الدكنجي. هذا ما كان يسمعه مسعود، وإذا تجاهله فإن أخوته وأخواته يعيدونه عليه. سمّوه "مجنون عايدة"، وزاده هذا اللقب إصراراً. كان يريد لهذه القصة أن تنتهي بنجاح وإلاّ حمل عارها طوال حياته. ربما كان يشعر بأنها تتلاعب وأن مزيداً من الملاحقة يجعلها تسلّم. لا ننسى أن عايدة كانت تبدي له أحياناً وجهاً راضياً، كلّما شعرت أنه قد يتعب ويتوقف. انتهت القصة كما رسمت عايدة: جاء أهله وخطبوها.

مسعود، الذي يخشى أن يبقى طوال حياته مجنون عايدة، كان دينها له يتراكم وعليه أن يستوفيه منها قرشاً قرشاً، لذا كانت الخطبة أول هذا الاستيفاء. حشرها فهجرته وعاد فلحقها وعزم على أن يُمضي الخطبة بسلام. بعد الزواج أراد أن يستردّ دينه. هذه المرة لم يبالِ، حين كلّمته ذات مرة عن وسيم فوجئت بكفّه مدويّةً على وجهها. صرخت حتى حضر الجيران، هذا ما كان مسعود يريده، أن يشهد الناس كيف يذلّها. تكرّرت الحادثة وبات حديث البلدة هذه المرة عقاب عايدة، واعتبر كثيرون أنها تستحقه. لم تهجره عايدة هذه المرة، قرّرت أن تهينه. كلّما صفعها كانت تفتح الشباك وتصيح به: "وحش، جبان". حاولتُ أنا أن أتدخل. كذلك أخوتي سليم وهيفاء وسعاد، لكنها خافت علينا من شرّه وشرّ أسرته. رجتنا أن نبتعد وبالفعل ابتعدنا حتى حين اتّصل بنا هو وطلب منا أن نتدخّل للصلح. أرادتها معركة، هذه المرة كانت تريد أن تنتقم لإهانتها، أرادت أن تصغّره في عيون الجميع. في النهاية نجحت في أن تستفزّه إلى أن صار ضارياً وقاتلاً.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أخاف مع ذلك أن يعيد القدر دورته مع سامية، أخاف أن يكون حظها مثل حظ عمّتها. لا أخشى أن يقتلها، فسامي ليس من هذا النوع، لكن الحياة مع ذلك لن تكون إلا جرجرة وعذاباً. سامية تحاول في البدء أن تحسن التصرّف لكنها في لحظة تفقد أعصابها وتعود طبق عمتها. أنا خائف، مهما يكن مصير هذا الزواج فإنه مخيف، فيه شيء لا يؤمن له، فيه شيء يدعو إلى التشاؤم.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

القسم الثاني

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

"مسعود جاء" دار هذا الكلام في البلدة كلها. "مسعود جاء" دار همساً قبل أن يعلو صوته بالتدريج إلى أن صار حديث الجميع. قيل إنه في بيت بشرى التي لم تعرفه في البداية حين وجدته على بابها. فتحته فوجدت كهلاً ملتحياً بوجه منحوت قاسي الجلد، عينان نفاذتان بزرقتهما، وعود نحيل جعله أكثر طولاً، كتفان عريضان وثياب كاكية، يدان معروقتان يلمع في أحد أصابعهما خاتم زواج. وقفت بشرى تتأمله وفي رأسه تعود صور مشطورة لا تستطيع أن تلتقطها. تركها تتأمله وهو يبتسم. لم تتعرّف عليه إلا حين سمعت صوته يلفظ اسمها "بشرى"، عندها بدأت الصور تنجلي، وجدت نفسها تنكبّ عليه تعانقه، واجتذبها هو إليه وسبقها صوتها إلى التعرف فقالت قبل أن تكون وعت تماماً: "مسعود" كان الوقت عصراً ولم يتغلغل الظلام إلا والخبر شمل البلدة دون أن يعلم أحد كيف تسرّب وانتشر. كانت تغريد ابنتها في البيت وعاد عماد ابنها مع أول الغروب فتعرف الولدان على خالهما. لم يبهرهما الأمر، فالخال الذي ترك زوجته مخنوقةً وفرّ من ثلاثة وعشرين عاماً لم يعد موجوداً بالنسبة إليهما، ثم أنّ اسمه اقترن دائماً بتلك الحادثة الفظيعة، وهي وحدها التي جعلته يحضر في السنوات الأولى، قبل أن تبهت وتبتعد. مع ذلك جذب طوله وعيناه النافذتان وفكه المنحوت انتباههما. كانت له هيئة أبطال السينما، بل كان فيه شيء من برت لانكستر. وسامته استوقفت

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

تغريد بخاصة فوجدت نفسها تسأل أين كان، ولم تسمع جواباً. كان أبوها محمود قد عاد ودخل مستعجلاً إلى الغرفة، وما أن تلاقى نظره بنظر مسعود حتى عرفه وانكبّ عليه يعانقه، فيما كانت بشرى، التي لاحظت ذلك، خجلى من نفسها لأنها تأخّرت حتى عرفت أخاها. خافت أن يكون ذلك معيار عاطفتها، لم يقل لها قلبها إنه هو. ليس قلب الأخت وإلا كانت سمعت نداءه.

انتشر الخبر، لم يكن عادياً وليس عودة مغترب كأي مغترب. لم يختلف عن خبر سجينٍ فار. قال كثيرون بل أغلب الناس: "ماذا جاء يفعل؟" كأنما قامت زوجته عايدة من القبر، كأنما انبعث هو من الموت. عاد الناس فوراً إلى الجريمة التي كانت أُنسيت ولم يبقَ شاهداً عليها سوى القبر الذي تُرك في البيت. عاد الكبار، الذين شهدوا الحادثة، والصغار، الذين سمعوها، إلى حديث الجريمة، بل إلى الأسئلة التي دارت حولها. لماذا كانت؟ هل كان هناك حقاً عشيق؟ ولماذا بقي مجهولاً؟ لماذا دُفنت في البيت، وماذا دُفن معها؟ أي فظاعة وأي تشويه! هل مثّل بها مسعود كما شاع؟ الأسئلة والحديث الذي لحق خبر عودة مسعود لم يمنعا البعض من أن يتسلّل إلى بيت بشرى، ليجد مسعود وأخته وعائلة اخته منشرحين بدون أدنى ارتباك ولا حرج. مسعود يستقبل الزائرين باشّاً ويعانق الرجال، بينما يرفع يده إلى صدره معتذراً عن مصافحة السيدات. كان هذا بالطبع غريباً منه، فلم يكن هكذا طبعه قبل أن يترك البلدة. قبل ذلك فاجأ عائلة شقيقته بالصلاة التي أقامها في البيت معتذراً عن الذهاب إلى المسجد. بدأ الناس كلما تقدم

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الليل يتوافدون إلى بيت بشرى، لم يطل التساؤل، انجرّوا واحداً بعد واحد إلى البيت. ليس الفضول وحده هو الدافع، مكانة عائلة مسعود والتقاليد الأسريّة وتراث البلدة كانت أيضاً دوافع. لم يسألوه أين كان. هذا سرّ يُلزمهم الأدب تجاهله، لكن مسعود لم ينتظر سؤالهم. قال بكل بساطة إنه كان في سوريا، دبّر له أصحاب من "الصاعقة" الدخول إليها. قال إنه اختفى في درعا، حمته عشيرة تزوّج منها وأنجب ولدين. هناك اهتدى وعرف دينه بحمد الله. لم يسأله أحد عن الجريمة، تجاهلوها، وهو أيضاً تجاهلها، لكنه سأل عن ابنه غسّان، ولمّا قيل له إنه عند خاله تجهّم لذلك رغم أنه يعرفه من قبل. لم تكن الأواصر مقطوعة بينه وبين عائلته. كان أصغر أخوته يزوره في سوريا التي تنقّل فيها بين مدنها دمشق وحمص واللاذقية، ويحمل إليه حصته من أملاكه وهدايا أخوته. رجع مسعود إلى ابتسامه حين أخذوا يحدّثونه عن ذكاء غسّان ونجاحاته في الثانوية وفي الجامعة.

اليوم نفسه ظهرت أول أعجوبة من مسعود. عرفت البلدة برمتها أنه توجه من الفجر إلى المسجد وأطال الصلاة والتلاوة بعدها. لم يكن هذا هو الخبر الذي هزّ البلدة، الخبر هو أنه بعد الصلاة لم يعد تواً إلى بيت بشرى، بل عرج إلى بيته ووقف إلى جانب القبرين ساعةً طويلة قرأ فيها الفاتحة لروحي عايدة ويسرى. قيل إنه جلس على قبر عايدة ورأسه بين يديه وقرأ لروحها عدداً من السور القصار، ثم توقف وقد خنقته عبرته وانتحب وهو يعتذر إليها ويسألها الغفران، ويسأل ربه التوبة عمّا فعلت يداه، وفي عودته مرّ على المسجد وصلّى

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ووجد عدداً من المصلين فجمعهم وقال لهم إنه ارتكب جريمةً، قتل زوجته البريئة، الشيطان وسوس له أن يفعل ذلك، الشرّ غلبه وتملّكه، زوجته طاهرة لم تتلطّخ، وما أشاعه البعض كذب في كذب. هو القاتل والجاني تاب إلى ربه ويطمع في مغفرته. كانت ردود المصلّين أقرب إلى الخوف وتفرّقوا عنه بحذر وصمت. كانوا أمام رجل يعترف بجريمته، أمام قاتل. تضمّن حديثه المتسلسل الهادئ آياتٍ وأحاديثَ، لكن الحاضرين نظروا إلى يديه الخانقتين وكادوا يهربون من شبح الجريمة التي اقترفتاها. تفرّق الناس من حوله وتركوه وحيداً فقام وخرج من المسجد، لكنه صادف مقهىً لم يكن له علم به فدخله وجلس إلى طاولة وجد حولها ثلاثة أخذ يحدّثهم عن جريمته، وعلا صوته وهو يتكلم. كان يقول:

– أي قتلتها. أنا مجرم بس تبت.

وصل صوته إلى آذان الآخرين الذين أخذوا يغادرون طاولاتهم ويتكوّمون وراء الطاولة التي جلس إليها. كانوا في الغالب شباناً لا يعرفونه ولم يسمعوا به، لكن الفضول دفعهم إلى أن يسمعوا كلامه. ما يقوله شيء لا يصدَّق، شيء أشبه بمشهد في السينما أو التلفزيون، لذا كانت ردودهم هادئة، بل وجد البعض في ما يقوله سبباً للهزء فأخذوا يسرون عنه بقدر من التهريج: "معليش معليش... تعيش وتاكل غيرها. يا ريت فيي أعمل بمرتي هيك. عندك شي تعليمة لأخلص منها؟"

كان مسعود يستمع إليهم وقد زاد هزلهم وبدأوا يتسابقون إليه. ما كان منه إلا أن اعتصر عينيه علّه يجد دمعاً لكن عينيه كانتا ناشفتين.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بدا مشهده وهو يعتصر عينيه هزلياً، فأسرع واحد إلى احتضانه. عندئذ على صدر هذا الهازل انسكب دمعه وعلت شهقاته، ابتعد عنه الشخص متفاجئاً وكأنما لسعه، كان دمعاً حقيقياً لم ينتظره الحاضرون فأجفلهم. مضت برهة من الصمت التزمها الجميع حتى مسعود الذي توقف عن البكاء، كأنما شعر بأن الرسالة وصلت وعليه فقط أن ينتظر الحكم. تقدّم كهل من المتحلّقين حوله وعانقه، كان هذا إشارة إلى الجميع الذين انكبّوا عليه يعانقونه، فرداً فرداً. عزّوه جميعاً. مرّوا من أمامه وعانقوه وفي النهاية عادوا إلى طاولاتهم وتركوه وحيداً، حتى الثلاثة الذين يجالسهم تركوا الطاولة، وانضموا إلى طاولات أخرى. في النهاية يبقى المجرم وحيداً. كانت فترة حرب، رؤوس تقطع وإعدامات بالجملة، لكن أحداً لا يعترف بأنه مجرم؛ مجرم فحسب؛ جريمة وليست قرباناً أو أضحية، ليست عنفاً مقدساً. جريمة من النوع القديم ولا بدّ من معاملتها بالطريقة القديمة. لقد عزّوه وتعاطفوا معه لكنه، في النهاية، ليس سوى مجرم فار. وجد نفسه وحيداً فقام إلى الجامع وصلّى. كان قد تعب من توسّل الآخرين، تعب جسدياً، فنهض وعاد إلى بيت بشرى حيث أغفى وهو في مقعده.مكتبة الرمحي أحمد

بالطبع كانت هذه أعجوبة لم تحدث من قبل، صارت بسرعة حديث البلدة. لقد خُتم حسابٌ قديم، عايدة بريئة ومسعود مجرم. ذلك أشبه بالقيامة. انبعث الموتى، وعادت البلدة تعيش مجدداً القصّة التي مضى عليها ١٨ عاماً. الذين كانوا محرجين من زيارته لم يعودوا كذلك، توافد الجميع عليه، زيارة واحدة لكل

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

واحد. لقد ذهبوا ليستمعوا إلى شهادة مسعود، ليطووا ملفّاً. ذهبوا تقريباً كقُضاة، كانوا يستمعون ويحكمون. البعض وجده يستحق المغفرة، البعض لم يكترث باعترافه ودموعه. هذه جريمة معلنة وينبغي أن تنال جزاءها. أخذ مسعود ينزل إلى السوق ويجلس في المقاهي، وبمجرد أن يصل يتحلق حوله عدد من الشبان يتزايد مع الوقت. كان بالنسبة لهؤلاء صاحب حياة، فعل كل شيء وغامر في كل شيء. يسألونه عن أحداث سوريا ويجيب بأنها ساعة الإسلام الذي لا بدّ منتصر ويتلو من الذاكرة آيات وأحاديث وأخباراً من التراث. لم يكن كهول البلدة خصوماً، كانوا لا يتفادون لقاءه أو الاستماع إليه، لكنهم لا يرون أن الدين الذي تلقوه عن آبائهم ضعف بحيث يمكن إسناده إلى مجرم، الدين الذي يتغلغل في علاقاتهم ومعاملاتهم ويومياتهم وطعامهم وشرابهم لا يحتاج إلى دعوة جديدة. "هذا دين أهلنا"، يقول له مدير الثانوية الخمسيني، "ولا داعي لتغييره" مسعود يعرف كيف يخاطب الشبان وكيف يخاطب الكهول، يتكلم معهم لغتين: لغة الأهل ولغة الإسلام المنتصر والغالب. إنه يتجول مصحوباً بعدد من الشبان بينهم ابن مدير الثانوية، والأشخاص إياهم يزيدون، لكن مجموعة منهم، تلعب دور النواة، لا تتغيّر. ثم لوحظ أنهم يلتقون في بيوت معينة يغلقونها على أنفسهم، لم يعد ذلك سراً، فقد بدأت الدعوة المعلنة والمفتوحة. كان أبناء المتدينين هدفهم الأول وهؤلاء لا يمانعون طويلاً، فسرعان ما ينضمّون إليهم. لم تقتصر الدعوة على هؤلاء، فقد تفشّت وبات مسارها أسهل واجتذبت كثيرين بحيث بات

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الذين لم يقبلوها آحاداً ومنفردين، ثم ظهر السلاح الذي لا يعرف أحد من أين أتى، لا بدّ أنه أتى عبر الحدود، لكنه تكاثر وبات معلناً وظاهراً. هكذا ولدت... رايات الهدى.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

غسّان

"جاء مسعود" الجميع يقولون ذلك ويفكّرون بي كأنه جاء من أجلي. لم يأت من أجلي بل من أجل أمور، ظاهرها مظلم، وبالتأكيد فإن داخلها أشد إظلاماً. لقد سقطت البلدة في يديه. لا نعرف من أين جاء هؤلاء المسلحون ولا من أين جاء السلاح. أظن أن المسألة أكثر تعقيداً. لا بد أن أصابع غير مرئية تلعب وتدبّر أسراراً فوق طاقتنا. استولوا على السراي، بات لديهم مركز للحكم وسجن. شغلوا الثانوية والمدارس بعد أن صرفوا التلاميذ إلى بيوتهم. حطّموا زجاجات الحانات وأفرغوها وحوّلوها إلى مخافر. أعدموا الكلاب لأنها نجسة. هذه ليست سوى البداية وما ينتظرنا بعدها أمرّ وأسوأ. لكنه أبي، الناس لا ينسون ذلك وهم يرونني. أنا أيضاً لا أنسى. أحتار طوال الوقت: كيف يكون شخص قتل أحد أبويه الآخر؟ ماذا يحمل في دمه؟ كيف يمكنه ألاّ يرث هذه الجريمة؟ أعلن أبي أن أمي بريئة وأنه قتلها ظلماً. هل علي أن أسامحه؟ هل ذلك من حقي؟ خالي جواد لم يكترث لهذا الإعلان، لكني، أنا الذي لم أعرف أباً ولا أماً وكبرت بدونهما، لا أعرف لماذا ينبغي أن أحكم في هذه المسألة،

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أن أحملها على كتفي لمجرد أن الرجل الذي تركني ٢٣ عاماً عاد ليكون أبي. خالي لا يصدّق توبة أبي، يقول إنه هكذا يغسل نفسه من جريمته فقط، يقول إنه عائد للانتقام. أسأل نفسي: الانتقام ممّن؟ لم يؤذه أحد، هو الذي آذى. لكن خالي يقول إنه انتقام فحسب، انتقام بلا سبب، الجريمة هكذا، هي أيضاً انتقام. الآن يدير البنادق ضد الجميع، يواصل انتقامه. لا يصدّق خالي توبته. منذ أن رموا بالرصاص كلب جارنا، خالي قال إنه كمن يرمي صاحبه، إنها فقط حاجة إلى دماء. لن يمر الوقت إلا ويبدأون في رمي الناس. إنه انتقام بالأصل. أفكّر أن هذا الأصل قد يكون ميراثي أيضاً. الجميع ينتظرون مني أن أذهب إلى أبي. إنه قوي ومؤمن فلماذا لا أصفح عنه؟ لماذا لا أصفح عنه بدلاً من أمي؟ جاءت عمّتي بشرى لتأخذني إليه. كنت في البيت، فضولي يدفعني أن أقبل. أريد أن أتعرّف إلى الرجل الذي قتل أمي على الأقل. أريد أن أعرف كم أشبهه. مع ذلك قلت لعمتي إني لا أريد أن أراه، لا أريد أن أكون بديلاً من أمي، لم تكلّفني بذلك، حتى وإن كلفتني لا أريد أن أكونه. عمّتي بشرى تعجّبت مني واستاءت. خالي لم يقل شيئاً. سامية لم تسكت، قالت لي أمام عمتي أن لا أذهب. خالي وبّخها على كلامها أمام بشرى.

– هذا بيو، مش من حقك إنك تقوليلو ما يشوفه. عندو عقل وبيقرّر.

امرأة خالي كانت خائفة. أحسستُ بخوفها وخفت أنا أيضاً. لن ينتج خير عن هذه العودة. هناك شر في الأفق. هذه الجريمة ستحكم البلدة.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كان صار لي أشهر بل أكثر من سنة لم أدخل إلى بيتنا. قررت أنني بتّ أكبر من أن أستشير قرطاً. بعد رجوع عمتي نزلت إلى الحديقة وخرجت من البوابة وبقفزتين وجدت نفسي أمام بوابة بيتنا، وجدتها مفتوحة كما تركها أبي. حين عبرتها شعرت أن فضاءها لا يزال يحمل شيئاً من أبي، كنت تحت عينه التي لا أعرفها وارتعشتُ بدون استعداد. عجّلت بخطف رجليّ وصرت بقفزة واحدة قرب قبر أمي. سر القبر الذي كان أكثف هذه المرة جعلني أجمد في وقفتي ولا أقتعده كعادتي. كان قبر يسرى أخفّ عليّ. هبّت نسمة وارتجفتُ لها. عدت إلى فناء الشرفة حيث وجدت المفتاح في قفل الباب، وما أن وضعت يدي عليه حتى دار من نفسه ووجدت نفسي في الداخل. قرب الباب كدت أصطدم بدجاجة جالسة على صيصانها، اهتاجت حين شعرت برجلَيّ قربها. لم تكن الدجاجة فقط، كانت أعشاش العنكبوت في زوايا البيت وأثاثه مبعثر بدون أي نسق، لم أجد المنضدة بسهولة وحين تبيّنتها وسط الفوضى لم أجد القرط والحليّ فوقها. كان واضحاً أنّ هياجاً شمل المكان. اختلطت الأشياء ودخلت في بعضها بعضاً. أدوات المطبخ كانت على الأرض وانتقل طرف منها إلى الصالون. الكتب سقطت عن الرفوف. تجوّلتُ في البيت، الستائر في غرف النوم مطوية وعلى طاولة الزينة المكحلة والأقراط والأقلام مركومة تحت المرآة. وقفت ونظرت إلى وجهي فيها، كان مقطباً متغيراً. البيت غاضب ومضطرب؛ هذا ما خطر لي وأنا أتأمل في المرآة عينَيّ اللتين اعتكرتا بحمرةٍ قانية. لم أعرف من أين حمل وجهي هذا الغضب. تسرّبت رفّة إلى صدري الذي امتلأ

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

على مهل بما يشبه الخوف. "سه. سه" سمعت ما يشبه الصفير، "سه. سه" كان الصوت متجهاً إليّ. نظرت فشعرت أن الأغراض على طاولة الزينة تغمغم في ما بينها، كان ذلك وشيشاً قريباً. بعد ذلك بدا ينجلي صوت من داخل هذه الغمغمة. حين انجلى تماماً سمعت فيما بدأ القرط يشعّ.

– ليش هالغيبة، شو ملتهي ببيّك، شرّف بالآخر. شو جايي يعمل؟ مين رح يخنق هالمرة؟

– ما شفتو، هربت منّو. قالولي إنو استلم سلاح وعمل عصابة مسلحة، قال صار ديّن وما بيقطع فرض. قال عامل "رايات الهدى"، يعني تنظيم ديني.

– ما بدك تشوفو ليش؟ هوّي بيك. ما فيك تتبرّأ منّو. بيك روح شوفو.

– شو هالحكي، مش عمبفهم. بدك ياني شوفو، شو قايمة القيامة. شي متل الجنون.

– اتركني بحالي. خايفة عليك. هالمرة رح يقتل حدا ما بدي يكون إنت. هيدا ما بيتأمنلوا. أكيد جايي يعمل جريمة. إبعد من طريقو. سايرو. ما بدي يأذيك.

– شو عمتحكي. أنا إبنو.

– هلق صرت إبنو. قلتلك إبعد. أنا شايفة دم. دم عمينزل من عينيّ. أنا فزعانة. دمّي رح ينزل مرة تانية.

كان الخوف يتلبّد في صدري ويطبق عليه. نظرت إلى عيني في المرآة فوجدتهما احتقنتا. كان هذا تقريباً إنذاراً، هكذا فهمت. رؤيا

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الدم النازل من العينين أفزعتني. السلاح الذي دخل إلى الضيعة، كان أيضاً ضدي. لم أعد أعتبر نفسي آمناً تماماً، الدم ضمن العائلة. استمر الصوت يقول "إبعد، إبعد" ولم أعرف إلى أين أبتعد. هل أترك البلدة؟ وماذا لو فعلت؟ سأبقى ابن أبي وهذا وحده يهددني. هل أختفي وراء أبي؟ هل أذهب لرؤيته؟ هل أكسب نفسي بالمراعاة؟ وماذا لو مانعت؟ ألا يستطيع أن يحضرني من حيث ابتعدت؟ لقد نامت الجريمة طوال هذا الوقت، نامت ١٨ عاماً واليوم هي تحاصرنا.

أليس كل ما يحدث استطراداً لها؟ ألا تتخذ الآن بعداً شاملاً؟

سامية، التي وبّخت بشرى عندما جاءت لتأخذني إلى مسعود، يُقال إنها الأشبه بأمي. هذا ما تقوله أمها التي تسمّيها عايدة كلما ظهر منها تمرد أو صراحة زائدة. يقال إنها الأشبه بها في الهيئة والطبع أيضاً. خالي أيضاً يسمّيها عايدة الصغيرة. بعد أن غادرت بشرى جلست سامية جنبي ولفّت يدها على عنقي، كانت تحسّ أنني بحاجة إلى العزاء. لم يظهر والدي فقط، بل ظهرت معه الجريمة، وأنا، بعد كل هذا الوقت، ضحية من جديد. قالت: "أنت مش ضايع لحتى كل ساعة يخلق لك بيّ وأمّ جداد. إنت إبن هالبيت ومانك ضايع، مانك سايب، مانك بلا بيت لحتى كل واحد ياخذك لعندو. إنت هون وتبقى هون" كانت في بنطلون جينز كحلي وقميص أبيض معرّق، ويدها لا تزال تلتفّ على عنقي، بينما مع كلماتها تقترب مني وأشعر بملمس الجينز على خصري ينفذ إلى جلدي. بعد قليل جاء سامي فانتقلت، لتجالسه، إلى كنبة أخرى. قال سامي الذي كان خلع جاكيته ورماها على ظهر الكنبة وأخذ يطوي يدي قميصه: "إجا

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بيك لهون" شرحت له سامية أن التي جاءت بشرى. سأل سامي: "وليش ما رحت معها؟" لم تحتمل سامية فردّت "شو هالحكي، حقيقي فكّرت قبل ما تقولّو" لم يجب سامي، فضّل أن يلقي سؤالاً آخر ويلتفّ على الموضوع.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

سامية

يقولون "إبن بيو وبيظل إبن بيو" يحذّروننا منه. أبوه الآن سيد البلدة. وقعت مناوشات بينه وبين أبو ثائر، كان ذلك في نهايات الصيف. "رايات الهدى" الوليد اقتحم مكاتب أبو ثائر في ساعة خاطفة وأخلاها من أهلها ومن سلاحهم. لم يعرف أحد كم كان خاوياً تنظيم أبو ثائر "الزحف الشعبي"، تمّ تقويضه في يوم واحد، تفرّقت جماعته وانسحبت. الناس الآن يسايرون مسعود، كلما أطلّ يكون وراءه جمع غفير. إنه الآن، بهيئة برت لانكستر، بعينيه الفولاذيتين ولحيته وطوله، رجل البلدة، النوافذ تزدحم للفرجة عليه حين يسير مع جماعته، يقصدونه لكل شيء، أمور خاصة وغير خاصة. إنه الآن إمام البلدة ومفتيها، يُسأل في الدين وفي السياسة وفي الشؤون الأخرى. مع ذلك يقولون عن غسّان إنه "إبن بيو وبيظل إبن بيو" الدم كما يقولون ليس كذبة ولا يصير ماءً. يحذّروننا من غسّان، يقولون إن إقامته بيننا ستجرّ الشرّ علينا. يكفي مقتل عايدة. هذا الابن سيطلع لأبيه، سيكون لغماً في البيت لا نعرف متى ينفجر. يقولون إنه سيظل حندوقة عين أبيه، أبوه لن يرفع عينيه عنه، إن طلبه بالحسنى في البدء

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

فسيستردّه بالقوة آخر الأمر. لقد ربّيتموه، عهدكم لأمه قد تمّ، ليس عليكم بعد واجب تجاهه وتجاهها. فعلتم ما عليكم. قولوا له إنه الآن خطر على البيت، ومن أجلكم ينبغي أن يجد لنفسه مكاناً آخر، ينبغي أن يلتحق بأبيه، هذا أفضل له ولكم. أبي وأمي يصغيان لهذا الكلام، يسمعانه يومياً. الناس الذين يتملّقون مسعود يقولون همساً إنه لا يزال مخيفاً، بل هو مخيف أكثر من أي وقت آخر. لم يكن صاحب سلاح عندما خنق عايدة عمتي، الآن هو صاحب سلاح وصاحب سطوة، وبالتأكيد هو الآن ينتظر، ولا نعلم متى يحوّلها أرضاً محروقة، متى يبدأ العنف. معركته مع أبو ثائر كانت تمريناً فحسب، جماعة أبو ثائر فقدت من زمن شراستها لذا لم تقاوم. مع ذلك سقط جرحى، فاح الدم، هذه بداية ليس إلاّ، بعد ذلك سيسقط دمٌ كثير، الناس خائفون، الجريمة تحكم ولن ينتج عنها أي خير.

جاء مسعود إلى بيتنا، كان غسّان خارج البيت، وعندما جاء ورأى الحرس على الأبواب فهم ولم يدخل، استدار وعاد إلى التجوال. كان مسعود وسيماً بهيئته السينمائية وحتى بلحيته المقبوضة على ذقنه المربّعة. يرتدي ثياباً مختلطة، عسكرية ودينية، قماشة مدورة ملفوفة على رأسه هي ذاتها التي يرتديها بعض الحجّاج، وثياب كاكية. دخل ودخل معه اثنان فيما بقي الآخرون خارج الباب. استقبله أبي وجاءت أمي وعلى رأسها إيشارب وجلست معه. سألني، وكنت أقرب الموجودين إليه، عن دراستي فقلت له إنها الأدب الفرنسي. قال إنه ليس متضلعاً فيه، لكنه مع ذلك تكلم عن بلزاك ولامارتين وهيغو، تكلّم عن الاستشراق، ثم التفت إلى أبي، الذي كان زميله

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

في المدرسة، واسترجع معه ذكريات المدرسة بقدر من الهزل والضحك. تكلّم مع أمي عن جمعية القراءة التي تنتمي إليها، كان صوته خفيضاً ورخيماً. وأخيراً حان الوقت ليسأل عن ابنه. قلنا له إنه خارج البيت. قال إنه لا بدّ هرب بمجرد قدومه. أكّد له أبي أنه كان خارج البيت حين أتى، لكنه ردّ بأن وصله أن غسّان يرفض رؤيته. قال إنه لا يستغرب ذلك، غاب عنه ١٨ سنة في ظرف فاجع "هكذا قال"، ظرف فاجع لم يُسمِّه وفضّل أن يكني عنه. حدثتني نفسي بأن أقول إنه ليس ظرفاً فاجعاً فحسب، إنها جريمة، لكني ابتلعت فكرتي وسكتّ. حدث فاجع، بل ظرف فاجع. إنه لا يسمّيه حتى حدثاً، مجرّد ظرف، وكأنه ليس لأحد، كأنه كارثة طبيعية. بدا لي أنه يتبجّح بثقافة أشبه بتلك التي يُحصّلها المحابيس في السجن.

لا أعرف لماذا غيّر غسّان رأيه وقرّر أن يصعد ليلتقي بأبيه. كان طلع الدرج قفزاً لكنه قبل ذلك دار خمس مرات حول البيت وهو يصارع ليصل إلى قرار. لم يكن توصّل إلى شيء حينما وجد نفسه يجتاز سلّم البيت. جينز وقميص أبيض، لم يكن مستعداً. وجهه محتقن ولا أظن أن ذلك من القفز، من الواضح أن حيرته الهائلة ارتسمت هالات حول عينيه. دخل ولم يسلّم وحين وقع نظره على أبيه، لم يلتفت إلينا، كان يبحث عنه. وبصوت أعلى من المعتاد، هو الذي يتكلم عادةً بصوت خفيض، بادره:

– شو جايي تعمل هون قلّلي. ١٨ سنة برّه. منيح البعّدت. وقفت القصة هون. أنا كبرت وهذي عيلتي. صرت شبّ وخلّصت علمي. لا عمخلّص علمي. شو جايي تفتح قبور، أنا نسيت، الناس نسيت.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أنا بلا أم وبلا بيّ. أنا هيك مرتاح. شو جابي هلق تعمل بيي.

كان مسعود يستمع بدون أن تبدو على وجهه أمارات الانفعال. صبر حتى قذف غسّان كل كلامه، تركه يفعل حتى إذا لم يبق عنده شيء هدأ تقريباً ووقف وهو يميل بقدميه.

– أنا ما جيت كرمال حدا. ديني جابني. جيت لخدمة ديني. إلهام رباني قللي إجي لهون. شفت النبي، ما حدا بيشوف النبي كذب، شفتو بالمنام. مش رح قلك كيف كان. المتلك ما بيصدقوا. بس قلّي إرجع عبلدك في شي ناطرك هونيك.

غسّان، الذي كان استنفذ جسارته ووقف جانباً، عاد وتعبّأ:

– طلاع من التفنيص. شفت النبي بالمنام وقلّك ترجع عبلدك؟ إنت بدك ترجع والله يستر شو ضامر. لو كان النبي صحيح كان قلّك خليك بعيد، كان قلّك أترك بلدك لأهلها. لو كان النبي صحيح كان قلك ما تقتل مرتك. بدك تقللي إنك هلق ولي! مين بيصدّق؟ الناس خايفة منك، ما حدا بيقلّك لأ، بيخاف تقتلو. كلن مرعوبين منك.

اغبرّ وجه مسعود. أعاده ابنه إلى القضية التي ظن أنه اغتسل منها وأنها الآن دليل إضافي على تقواه. توبته بعرض جريمته وسيكون غفران الله واسعاً. الله يستقبل الخاطئ أحسن ممّا يستقبل البريء، لكن الآن عليه أن يتكلم مع ابنه، وليس مع أي آخر، مع ابنه الذي رماه خلفه وحرمه من الأهل. لن يكون الأمر هيّناً، لا يشبه الكلام مع أي شخص، ولا حتى مع الله نفسه. اغبرّ وجهه. هذه الساعة التي طالما فكّر فيها بدون أن يصل إلى أسلوب مناسب. لا يعرف كيف يطلب مغفرة ابنه.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

– أنا ما قتلتها. هي طلبت مني. كان صار لها أيام عمتتوجّع. قالتلي دخيلك بدي إرتاح.

لم يكن أحد منا يحلم بأن يكونَ جواب مسعود هكذا. كان يكذب كلصّ لا كوليّ. ابنه انشرح عندما وجده يكذب، كان يحسب له حساباً آخر، يظن أنه سيحرجه أو يطلب مغفرته.

– كمان بتكذب! والله ولي! ولي آخر زمن! شو عندك بعد تفنيصات؟ أمي انتحرت وإنت ساعدتها لتموت، وهلق شو جايي تعمل هون تساعدنا لنموت. ناقصنا سلاح وتنظيمات. بلّشتْ مع جماعة أبو ثائر "الزحف الشعبي" وبكرا ما بنعرف مع مين. النبي قلّلك تجي تخرّب البلد؟ بكره بيرجع أبو ثائر وهالمرة ما رح تنقضى بجريحين ولا بتلاتة، هالمرة رح يكون فيه موت.

المسلحان اللذان كانا مع مسعود تأهّبا، ازدادا قرباً من مسعود وحرّكا سلاحيهما، كانا يهمّان بتأديب غسّان لكن مسعود ثناهما بإشارة من يده فابتعدا. مسعود المكسوف لم يجد بسهولة كلامه.

– لازم تصدّق. أمك ما كانت طبيعيّة. أنا قدمتلها كل شي وهي ما بعرف شو كان بدها. كانت تظلّ أسبوع بدون حكي. كانت تحاكي الشجر والحيوانات. قلتلك مش طبيعية. كان بدها تموت. أنا استغفرت ربي وتبت.

– إيه مش طبيعية لأنها ما حبّتك إنت مسعود الشربيني اللي النسوان بتموت عليه. مش طبيعية لأنها بتردّ الكفّ كفّين. وأنا كمان مش طبيعي لأني عمبحكي هالحكي. لو كنت طبيعي كنت مشيت وراك، صرت واحد من "رايات الهدى" وبلّشت قوّص كلاب لخوّف الناس.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كان والدي، خاله الذي ربّاه، ممتقعاً طوال الجلسة لكنه لم يتكلم. أما أنا ووالدتي فكنا منشرحتين، كنا أمام غسّان آخر، لم نره هكذا طوال حياتنا. كان في العادة محرجاً باستمرار، يتجنّب أن ينحاز وأن يختار. أظن أنه لم ينسَ في يوم أنه ابن الجريمة وأنه دون الناس جميعاً بلا أبوين. لم يكن من حقه أن يتّخذ موقفاً. الجريمة التي فيه ستكون عندئذٍ على لسانه. هذا اللقاء مع والده تردّد بالتأكيد في القيام به لكنه حرّره، كان حقه في المواجهة، في استرداد نفسه.

– أنا مش حدا. أنا بلا أم وبلا بيّ. أنا مش بس خسرت أمي لما قتلتها، أنا أكتر خسرت بيّي. بدك ياني كون إبنك؟ شيلها من راسك. أنا مخلوق بهالدنيا بلا والدين، بحب قول هالحكي لكل شخص بعرفو بس بخاف ما يصدقني. فيه حدا بلا أهل؟ إيه فيه حدا مقطوع من شجرة، لكن وينها الشجرة؟ مش موجودي. أنا بخاف إني كون إبن الجريمة ومن حق الناس تطردني. خالي قبلني بس أنا ما فيّي كون إبنو، ما فيّي لبّسو الجريمة اللي جيت منها.

لم يتكلّم غسّان مرةً بهذا الوضوح. لقد انتظره طويلاً حتى قاله. كان هذا اعترافه. تصفية حساب حقيقية. كان بحاجة إلى هذه اللحظة ليعلن براءته من أصله ومن الجريمة التي حملها في دمه، اللحظة التي يقول فيها علانيةً إنه ليس ابن أبيه وليس ابن أحد. إنه لم يحمل إرثاً من أيٍّ كان ولا دماً من أيٍّ كان. لقد اغتسل من أصله ومن دمه، فعل ذلك أمام الجميع. والدتي كانت مبهورة وهي تسمعه، ترافقه ليس فقط بسمعها ولكن بيدها التي ترتفع كل مرة لتوافق وتثني. أبي كان يخاف بالتأكيد ممّا وراء هذا اللقاء وما أمامه. لقد تربّى غسّان بدون

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

هذه "البطولة"، ولا يُعرف إذا كان سيدفع ثمنها.

على الباب سامي بطقم كحلي وكرافات حمراء، بالغٌ في أناقته، يبدو خارجاً من الحمّام، ذقن محلوقة وشعر مقصوص. لم يكن هكذا مناسباً لجلسة تعرية كهذه التي كنّا فيها، لكنه قابل مسعود ببسمة كبيرة وانكبّ عليه يقبّله وجلس في أقرب مكان منه. لم يكن الحديث انتهى. سمع غسّان يقول إنه "مش حدا" وليس ابن أحد. سمعه يقول لمسعود "١٨ سنة كافيين لصير أنا وبطّل ابن حدا"، لمعت عينا سامي وهو يسمع هذا، لا أعرف إذا كان من الدهشة أو من السرور لفشل الصلح بين الأب وابنه. اقترب أكثر من مسعود حتى صار كرسيه لصيقاً بطرف الكنبة التي جلس عليها وانحنى عليه يحادثه بصوت خفيض وكأنه يعرض عليه أن يكون ابناً بديلاً. كان مسعود بالتأكيد بحاجة إلى شيء كهذا فاستقبله وغرق مع سامي في غمغمة غير مسموعة، ثم اعتدل سامي على كرسيه وكذلك مسعود على كنبته، فارتفع صوت سامي يسأله عمّا جرى لـ"الزحف الشعبي"، تنظيم أبو ثائر. كانت الفرصة أمام مسعود ليعوّض خسائره ويستردّ مكانته، فعلا صوته وهو يروي كيف هجم فتيانه على مكاتب "الزحف" وكيف وجدوهم منشغلين بشؤونهم، من كانوا يأكلون قاموا مرعوبين عن المائدة. الذين كانوا مجتمعين عجلوا بالفرار وزلقت قدما أحدهم فانكسرت إحداهما. أما المضحك فهو أن أبو ثائر كان في الحمّام حين علت الضجة، ولما خرج من الحمّام لم يجد أحداً أمامه، وصاح فلم يتلقَّ جواباً، عندئذ غادر المكتب ملتفّاً حوله لكي لا يصادف مقاتلي "رايات الهدى". ضحك الجميع للرواية التي أحسن مسعود أداءها،

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ومن جملة من ضحك غسّان نفسه وخاله وامرأة خاله وسامية.

أما الذي قهقه ودسّ في كلام مسعود علامات تعجّبه واستفهامه وسخريته فكان سامي. كان الكلام مفصّلاً لا يغفل ساعة الهجوم، الساعة الخامسة صباحاً، ولا ينسى الزمان ولا المكان والدقائق الصغيرة، ورواه مسعود الذي يحسن السرد بقدرة فائقة على الوصف والهزل وبحماس وأداء حاذقين، فغرق الجميع في الضحك. سامي، بعد أن أنهى مسعود روايته، ندّد بالزحف الشعبي الذي كان عصابةً أكثر منه تنظيماً، وسبق أن انخدع به الجميع ومنهم هو، أي سامي، لكن سرعان ما ظهر جشع أفراده ودناءتهم، كما ظهروا خوّافين جبناء وبلا قضية. أما أبو ثائر فأطهرهم قلباً، ولكنه بالرغم من ذلك ساذج غبي وفي وسع صبي أن يغشّه. لا أعرف من أين جاء سامي بهذا الكلام. منذ أشهر تغدّى أبو ثائر عندنا وجامله سامي كثيراً وامتدح، أثناء ذلك، نباهته وسرعة خاطره. أعرف أن سامي يراعي الآن مسعود كما راعى أبو ثائر من قبل. إنه يقول إنهم جميعاً مسؤولون عن فساد الناس، وأن كل صاحب مصلحة لا بدّ أن يفعل مثله. لا أنتقد سلوك سامي، فأنا معه في أن المسؤولية تقع على الكبار، لكن هذا مسعود؛ قاتل عمّتي. لا يمكننا، هو بالذات، أن نقبله في بيتنا. لم نستطع أن نغلق بابنا في وجهه، لكن غسّان، غسّان المتردد الخجول، أعطاه درساً. لن نراه في بيتنا بعد الآن.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كان غسَّان صورة طبق الأصل عن مسعود. في سنّه لم يكن مسعود شيئاً آخر. ذلك كله لم يُشفِ مسعود من الشكّ الذي بقي يغلي في صدره وهو يلاحظ قرب عايدة من عُمَر أخيه الأصغر الذي كان تقريباً من جيلها. كان يعود إلى البيت فيجد عمر سبقه إليه بساعات وجلس إلى عايدة يشكو لها. عمر المتأتئ، المنعزل تقريباً، وجد في عايدة مستمعاً يسرّ إليه بهمومه. من كل آل الشربيني كان هذا الفتى الأقل عنجهيةً والأكثر انجراحاً. وجدت عايدة فيه أيضاً مستمعاً. الآن يقال له إن غسَّان طبق الأصل عنه. زالت وساوس ثارت بعد أن قتل مسعود عايدة، لم يعد هناك من يتكلّم عن الرجل الذي وجده في فراشها واختفى في الليل. كان اعتذار مسعود إنقاذاً لشرفه. الآن يمكنه أن يستردّ ولده، لكنه، مع ذلك، لم يشفَ تماماً من شكّه. أخوه عمر في بيروت لم يصعد إلى البلدة لملاقاته، وهو أيضاً لم يسأل عنه. في درعا تزوّج ابنة عشيرة وأنجب منها ولدين، لكنه عاد وطلّقها وترك لها ولديها: مازن وطارق. لم يفكّر منذ عاد في أن يرجع إلى درعا ليراهما. السرّ الذي يعذّبه والذي كان وراء ساديّته هو ضعفه الجنسي. لم يكن هكذا قبل زواجه من عايدة؛ كانت له قبل ذلك نزواته ومغامراته. لم يصدّق حين خانه جسده في ليلة زواجه من عايدة، حاول أن ينجح لكنه تراخى وعاد فتراخى عندما اقترب منها. كانت عايدة تنتظر ذلك لتضحك ساخرةً. صفعها فعلا صوتها،

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

قالت إنها ستفضحه بين الناس. لولا صراخها لعاد ولملم رجولته، لكن مع هذا الصوت وذلك الكلام كافح ضد إحباط ركبه ولا مجال ليطلع منه. ندم حقاً لأنه قتل عايدة، لكنه ما زال يضع الحق عليها، لم تترك له خياراً. لو سكتَ لعجّت البلدة بأخبار عجزه. هو مسعود الشربيني عاجز. هذه المرأة عجّزته، إنه ذنبها بالأولى، ذنبها، صوتها عجّزه، وقامتها قتلت رغبته، جسدها رفضه، هذه هي المسألة، أحسّ بلا شك أن جسدها يرفضه، لم يناده، كان ينتظر سقوطه، لقد أسعدها سقوطه. بقيت تحزّ في موضعه، كلما قام عنها خائباً، وقليلاً ما كان يفلح، ملأت البيت تهكّماً وسخريةً ولم تبالِ بصفعاته، يصفعها ويرتفع صوتها أكثر، يصفعها وترفع قدمها في وجهه. ثم يذهب وينام في غرفة أخرى، ينام من إحباطه وهي تلحقه وتُعيّره. عندئذٍ ينهض ويصفعها، هل كانت تريده أن يخنقها؟ هل كانت تريد أنْ تنتحر على يده؟ أحياناً يخيّل لي ذلك لكنه لا يتأكّد. البدوية التي عاشرها في أول حياته كانت تعامله كملك، تناديه إليها بصوتها وجسدها. هذه المرأة أخافته، فعلاً أخافته بقوتها، بعنادها، أخافته وإلا لماذا تراجعت شهوته. كان ينالها فقط بصفعاته، إنها معركة وميزان قوى، ينالها بصفعاته، يقهرها بصفعاته، وفي النهاية أجبرته على أن يخنقها، نعم أجبرته، كان معها سرّه وهي قادرة على أن تجعله مسخرة البلدة، هو فتى صيعون، شيخ شبابها، يطلع شبه عاجز. لقد أعجزته، هي المسؤولة، لكنها قتلت رجولته. عرف ذلك من الأول، المرأة التي تزوّجها من درعا كانت أيضاً بدوية، لكن فات الوقت عليه، كانت تناديه بصوتها وجسدها "تعال سيدي" لكنه كان انكسر، كسرته بنت

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الطحيني. ذهب إلى البدوية ولم يستطع، لكنها تظاهرت بأنها شمّت رجولته، لم تعيّره. تعرف هفوات الرجال وخذلانات أجسادهم، تعرف ساعات ضعفهم. سكتت حتى إذا لملم حاله وامتلكها زغردت، أنجب منها ولدين، لكنه كان كل مرة أمام تحدٍّ، كل مرة كانت كفاحاً يقع فيه ويتعذّب مرات قبل أن يلملم حاله. كل مرة كانت عايدة من ورائه تواصل تعجيزه. حينما ذهب إلى قبرها لدى عودته إلى صيعون بكى من حرقته. لم يكن متصنّعاً، بكى من حرقته. عرف أنه حين كان يصفعها وعندما خنقها خسر تماماً معها، كان هذا إفلاسه. لم يعد في استطاعته أن يرفع كفّيه إلى وجه أحد، لم يعد في استطاعته أن يستعيد حاله. كل قبضته التي صرفها في تظاهرات درعا كانت قناعاً. خرج في التظاهرات. انتمى إلى تنظيم ديني أفاده في تعلّم الدين، لكنه لم يحرّك ساكناً. حين بدأت التظاهرات شارك فيها كل يوم، وكل مرة تقريباً كان يضرب بالحجارة ويقاتل بذراعه. أُوقف مرة لكنه قفز هارباً ونجا من الرصاصات التي سُدِّدت إليه. ثم قالت له نفسه إنه لا يفعل شيئاً هنا، سيبقى غريباً ويموت غريباً، أفضل له أن يعود إلى صيعون، هناك الحجر الذي يرميه يفعل شيئاً، هناك يعرف من يصيب، هناك يرونه حقاً ويحمدون عمله. طلّق امرأته وتركها مع ولديه وعاد إلى صيعون. هكذا عاد منسلاً كما ذهب، لم يكن مشتاقاً إلى ابنه، قلّما كان يسأل عن أخباره. علم أنه عند خاله، ووجد هذا مناسباً. لكنه ما أن وصل إلى صيعون حتى وجد الجميع يتحدثون عن غسّان الذي طلع الأول في الجمهورية في امتحانات البكالوريا. هذا الخبر عرفه في حينه، لكنه لم يظن أنه ما زال في ذاكرة

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

القريبين. علم أن عليه أن يكون فخوراً به ومن حقه أن يضمّه إليه. وجد أنه بابن كهذا سيكون حقاً ركناً في الضيعة، وأنه معه ينسى الناس في البلدة مأساة أمه؛ يحتاج مسعود إلى توبة كهذه تغسل جريمته.

بعد شهر من الإقامة في ضيافة بشرى ومحمود احتار مسعود بين أن ينتقل إلى بيت العائلة المهجور منذ توفيت الوالدة من عشر سنوات أو إلى بيته المهجور منذ خنق عايدة. بيت العائلة كان أوسع لكن بيته كان أحدث. بشرى أرادته أن يذهب إلى بيت العائلة، قالت له ذلك وهي في روبها المنزلي الأسود اللون الذي لا ترتدي غيره منذ توفيت يسرى، بالأحرى منذ توفيت والدتها التي سبقت يسرى بعام. من حينها ارتدت الأسود ودامت عليه بعد أن لحقت يسرى جدتها. كانت لا تزال جميلة، محمود يقول لها ذلك، الأمر الذي يستفزّ غضبها. مسعود اختار بيته وقال "خلينا نشوف" سلّمته بشرى المفتاح بعد أن بحثت عنه في صندوق معدني جمعت فيه أغراض أخيها، بما في ذلك مصاغ زوجته. ذهب مسعود ماشياً إلى بيته الذي كان في وسط البلدة، في حين كان بيت بشرى في أطرافها. فتح البيت ووقف هنيهةً في الباب ينتظر أن تخفّ رائحة العطن التي انسلّت إلى أنفه. أضاء لكن الكهرباء كانت مقطوعة فتراجع إلى الحديقة وجلس مجدداً على قبر عايدة في انتظار الشغّالة التي دبّرتها بشرى له على أن تلحق به إلى البيت. جاءت مريم حاملةً معها مريلتها وفي يدها سطل حوى، عدا المكنسة، معدات التنظيف. دخلا معاً، كانت الكهرباء قد عادت. لم يتوقع مسعود أن يحافظ البيت على ترتيبه، من الواضح أن بشرى كانت ترسل كل شهر من تنظّفه. لم

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

تكن هناك طبقة غبار على الجدران والمرآة أو الكنبات، لقد مرّت يد عليها من وقت قريب. الصالون، وهو أول ما دخل إليه، حافظ حتى على لونه الأزرق. اللمبادير كان يلمع. اللوحات كانت أيضاً لمّاعة. جال في البيت، حتى المطبخ لم يكن معجوقاً ولا غرف النوم التي كانت لا تزال على ترتيبها. حمد مسعود لبشرى عنايتها بالبيت، لم تكفّ عن انتظاره. كانت المولود الذي يليه في ترتيب العائلة، وبقيت متعلقةً به طوال نشأتهما. كان يحامي عنها في البيت ويصحبها إلى السهرات، ورحيله خسارة لها. وفاة ابنتها يسرى زادتها حنيناً إليه. في تلك اللحظة بحثت عنه في البيت، كان ينبغي أن يكون موجوداً، لا تستطيع أن تحتمل هذا العبء بدونه. أرادت أن تدفن يسرى في بيته، أرادتها قريبةً منه أو شعرت أن هذا يعطيها حصّةً من البقاء. هي الآن تريده أن يعود إلى بيت العائلة التي شعرت أنها، بموت يسرى، تقوّضت تماماً، تريد للعائلة أن تنهض من جديد. مسعود الذي تجوّل في بيته عاد وجلس على الكنبة بعد أن فتح النوافذ. ما أن استقرّ وسط الكنبة وألقى ظهره على مسندها حتى شعر بفراغ البيت يملؤه بشعور عميق بالعزلة. داهمه حزن ووحشة فظيعان. حاول أن يغير جلسته علّ ذلك يعدل مزاجه، وبالفعل انزاحت الغيمة عنه. أراد أن يفعل شيئاً، لكنه شعر أن لا شيء أمامه ليفعل. خرج إلى الحديقة وجلس على قبر يسرى، شعر بأنس يتسرّب إليه من القبر، من بياض الشاهدة واللوحة الرخامية. كانت الشجيرة منحنية عليه، لامس أوراقها بكفّه مراراً، والخضرة المشرفة عزّته. عاد إلى ذاكرته حديث ابنه. سمع صوته. أغمض عينيه وفي إغماضهما تراءت له لمحة من ولديه مازن

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وطارق. فكر في الرجعة إلى درعا لكنه أبعد الفكرة عنه، بدت عودةً إلى البيت الذي لم يعد موجوداً. تذكّر أنه أبعد عائلته عن درعا. مع ذلك رقّ قلبه بحنين لجرأة ابنه عليه، تذكّره وهو يصيح به "شو جابي تعمل هون؟" كان في طوله تقريباً وفي هيئته، أحسّ باعتزاز لذلك. كان العصر أطبق على المكان وبدأ الظلّ يملأ الباحة. وقف ودخل وأضاء، رأى على المنضدة قرط عايدة وأدوات زينتها، وقف قلبه لذلك كأنه يلتقي بشبحها. أحسّ أن القرط يشعّ لكنه لوى وجهه، اعتبر أنه يتوهّم وأن وهماً كهذا لا يأتي من لا شيء. تمدّد على الكنبة وسحب سيجارة من العلبة وأشعلها. كان قد استنفذ مشاعره واستنفذ اضطرابه. لم يعد لديه، وهو ممدد، ما يفكّر به أو ما يحسّه. أحسّ أن فراغ المكان يغلب عليه وأنه ممدود كالظل على الكنبة. شعر بنفسه خفيفاً حتى أنه أغمض عينيه، وهكذا غاب عن نفسه وغرق في اللاشيء. بدأ اللاشيء يتسرب إلى خلاياه ولم يعد قادراً على فتح أجفانه. لم يدرك أنه النوم حتى سمع قرعاً على الباب، فتحه، كانت ابنة بشرى في الباب، قالت إن أمها أرسلتها بالعشاء، "إذا كنت مرتاح تعا إسهر، وإذا بدك تظلّ ظلّ"

لم تكن بشرى سعيدة برجوع مسعود، لم تعد قادرة على السعادة، مع ذلك، التقطت أنفاسها. موت يسرى جعلها تتغيّر، لم تتغيّر، لم يعد مزاجها نفسه، لم تعد مقاييسها نفسها. رأت مسعود يقتل عايدة، لم تسامح نفسها لأنها سكتت على ما رأته. موت يسرى كان عقاباً لها. نقمت على مسعود وعلى نفسها. أعادها اجتماعهما فوراً إلى موت يسرى. حضر مسعود، حضر شريكها فالتقطت أنفاسها، لكنها

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أيضاً رجعت إلى ذنبها الذي أطاح بالبيت. طالت إقامة مسعود وكان هذا مبعث سرور محمود، زوجها الذي لم يكن يعلم شيئاً. أما هي فكان الضيق الذي يركب قلبها يزداد ويصل إلى خناقها، لهذا ارتاحت لخروجه، لكن مسعود الذي لم يستطع النوم على السرير الذي ضمّه هو وعايدة عاد إلى بيت بشرى، أمضى يومين عندهما وتوجّه إلى بيت العائلة، الذي كان يسمّى القصر، وهو الذي بني على مراحل، وفي كل مرحلة بهندسة مختلفة، مرة بقناطر ومرة بدون قناطر، مرة بشرفات ومرة بدون شرفات، مرة بقرميد ومرة بدون قرميد. كان نوعاً من معمار فوضوي مختلط، مع ذلك كان له حجمه وله هيبته. شغل مسعود جناحاً أرضياً في البيت. شعرت بشرى، ليس بدون حس بالذنب، بالراحة لأنه لم يعد أمامها في كل حين. غسّان، الذي كان يظن أن عودة والده يمكن أن تسهّل الأمور، وجد أنه لا يزال يتخبّط في حيرته، بل تجددت المشكلة وعادت إلى بداياتها. لم يكن سأل نفسه كيف قتل مسعود أمه، الآن يشعر بحاجة إلى أن يعرف. يفكر في أن يذهب ويسأله لكنه لا يتقدم خطوة ولا يجرؤ على أن يذهب. لا يعرف ماذا عليه أن يفعل إزاء عودة والده لكنه فقط يهرب، يهرب لا من لقاء مسعود فحسب بل من المسألة كلها. عاد إلى الدوران فيها، إلى الشعور بأنه مطوّق بها وأن عليه أن يصطدم بها كلما شعر أنه يكاد يتملّص. كان يتساءل إذا لم يكن عليه أن يفعل شيئاً، في حين أنه هو المعني والقضية قضيته. خاله جواد يشعر بالخجل الذي لا مفرّ منه، قاتل أخته هنا ويتجاسر على زيارته بدون حياء، وهو لا يستطيع أن يغلق بابه في وجهه، لا يستطيع أن يعتذر عن استقباله. هذا

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بالتأكيد مفهوم لكنه مهين. لو قال له: "لا، لا تدخل إلى بيتي"، ماذا كان فعل؟ هل سيؤذيه؟ يؤذي عائلته؟ في الأغلب كان سيدير وجهه ويعود من حيث أتى، لكنه عجز عن أن يقول له ذلك. جاء ليسأل عن ابنه، فلماذا لم يقل له: "ابنك في عيني لكن دبرلك لقاء معه في مكان آخر". لولا غسّان، لولا ما فعله غسّان، كان أغرقه الخجل. زوجته لم تشعر بخجله، هي لم تجد ذلك مهيناً، كانت عايدة صديقتها وليست فقط أخت زوجها، لكنها لن تطرد رجلاً وراءه جريمة ووراءه عدد من البنادق. إنها أعراف فحسب وهي لا تقيم وزناً لما يعتبره الناس أعرافاً أو أصولاً. تترك ذلك لآل الشربيني عائلة مسعود، وحتى لآل الطحيني عائلة زوجها. هي تريد أن تمرّ الأشياء، أن تمضي بهدوء وبسلام مهما كان الثمن، لا بأس أن تدفع من كبريائها، أن تخجل قليلاً، المهم أن لا تقع في الورطة، أن تتجنّبها. حينما شعرت بخجل زوجها قالت له:

– صحتك بالدني، المهم أنو رح ننام رايقين، المهم إنو ما نسمّ بدنّا.

أما التي وجدت نفسها متورطة أكثر مما توقعت فهي سامية. اعتادت العائلة أن تجتنب ذكر المسألة. منذ جاء غسّان وسكن معهم لا تتذكر سامية أنهم فتحوا الموضوع، لدرجة أنها نسيته، وحسبت أن صمت العائلة دفنه وأن وجوده تضاءل بقوة هذا الصمت، بتتابعه وتكراره وتراكمه حتى لم يعد موجوداً. مع عودة مسعود وظهوره في البلدة، وتواتر أخباره، أحست سامية كما لو أن المسالة انبعثت حية، أو أنها في الحقيقة كانت حيّة طوال الوقت، بدون أن تشعر أو

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

تحسب حساباً. عاد مسعود، لا يمكن أن يكون غسَّان غير معني، وهي، بالدرجة نفسها، لا يمكن أن تكون غير معنية. لا تعرف من هو غسَّان بالنسبة لها، ابن عمه، أخ، أو شيء آخر، لكنها تعرف أن مشكلته مشكلتها أيضاً. لهذا كانت سامية سعيدة وهي تسمع غسَّان يردّ على مسعود أو يستفزّه. أحبّت هكذا أن يقفز فوق المشكلة، لكنها تعرف أن هذا لا ينهيها، تعرف أن هذه هي البداية وأن هناك ما سيتبعها. سكت مسعود تقريباً وهو يستمع إلى غسَّان، لكن سكوته لن يدوم. إذا كان يقود شباناً ويعلّمهم دينهم ويسلحهم، فإن عليه بالأحرى أن يقود ابنه، أو على ألأقل يُسكته ويوقف حملته على "رايات الهدى"، وسخريته منها ومن أبيه، قائدها، التي يتناقلها أهل البلدة من حي إلى حي، ومن حارة إلى حارة. القصة لن تنتهي في يوم ويومين، ستطول بكل مخاطرها، وهي لا تريد لغسَّان أن يحني رأسه. لا تريده بالتأكيد أن يتبع أباه، هذا يهمها بقدر ما يهمه. إذا حنى رأسه فإن رأسها ينحني معه، إذا سكت خوفاً فإن هذا خوفها أيضاً. إنها شريكته، شريكته أكثر مما هي شريكة والديها. ثم أن والده لن يحتمل أن يكون ابنه خصمه، هذه ورطة لهما معاً ولا يمكن أن يتجاهلاها. إلى أين سيصلان؟ يرتجف قلب سامية عندما تصل بتفكيرها إلى هنا.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

خرج مسعود من بيت جواد، خال غسّان، مرتبكاً. لقد توقّع كل شيء إلاّ أنّ ابنه فاق توقّعاته. توقّع جفاءً وتجنّباً، لكنه فوجئ بالإهانة، وممن؟ من غسّان الخجول الذي عرف عنه أنه متكتّم لا يُخرج بسهولة ما يحبسه في صدره. كيف أصبح جسوراً إلى هذا الحدّ؟ وكيف هجم عليه، هو أبوه، بهذه الجرأة؟ كان يعرف أن هناك ما ينتظره لكنه منذ وصل وجد الأمور أسهل ممّا حسب، تركوه يجوب البلدة، لم يفاتحه أحد بجريمته، عذره الجميع وزيارته لقبر عايدة طارت بين الناس، بل استحق لذلك ثناء الكثيرين واعتبارهم. الشبان توجّسوا من أنه لم يأت بلا سبب، تدفّقوا عليه واستمعوا إليه، أدركوا أنه مندوب من تنظيم إسلامي، كلامه سار بين الشبان وبسرعة لم ينتظرها بدأوا ينضمون إليه، أولاد بشرى الثلاثة كانوا أولهم، حازم وعماد وخليل افتخروا بخالهم وأيّدوه. لم يعجب هذا بشرى ومحمود، توجّسوا منه، إن كانت هذه هي البداية فماذا سيتبعها. لكن حين بدأ الشبان يلتفّون حول مسعود تبدّلت مشاعرهما. جلب مسعود معه كل شيء، الدعوة والسلاح الذي أخذ يجتاز الحدود ويصل إلى البلدة، والمال أيضاً. الشبان الصغار العاطلون في العادة وجدوا عملاً في مكاتب التنظيم، التي تكاثرت، وحرسه. بقدر ما صار مسعود مهماً رضيت عنه بشرى ورضي محمود، عدّا ذلك رصيداً للعائلة وإعادة لأهميتها التي انفقدت مع قتل مسعود لعايدة.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كان الأمر سهلاً بحيث لم يستبعد مسعود أنه سيكون سهلاً أيضاً مع غسّان. هذا الشعور جعله يستعجل ويصعد إلى بيت جواد، لولا ذلك كان أرسل وراء غسّان أو دبّر معه لقاءً في السرّ. الآن ترك بيت جواد متحيّراً، لن يطلع الصباح إلاّ والبلدة كلها عارفة بما حدث. كل البلدة سمعت أن غسّان قال لأبيه "جايي تفتح قبور؟"، وأنه كذاب، ولو كان رأى النبي حقاً في منامه لكان سمع منه كلاماً آخر. كل البلدة تداولت هذه القصة التي أعادتها إلى الجريمة الأولى. لكن مسعود بقي يستقبل الشبان، والسلاح ظل يتدفق وكذلك المال. ما كانت حكاية كهذه، مهما كان حجمها، لتؤثر في مسألة أخذت طريقها ولديها كل هذه المقوّمات. مع ذلك ارتبكت العملية، عاد البعض إلى جريمة مسعود، بالنسبة إليهم ليس اعتذاره كافياً، هذا البعض بدأ يتساءل من أين ولماذا يأتي المال والسلاح. أسئلة لم تكن خافية لكن السلاح والمال قادرين على تمويهها. ثم هناك مسألة غسّان، أصبح غسّان مسألة وبدأ التساؤل ماذا سيفعل مسعود بعد الصدمة. هذه المرة لن يتسرّع مسعود ولن يعرّض نفسه لصدمة أخرى، سيترك غسّان لحاله بعض الوقت قبل أن يصل إلى تدبير آخر.

غسّان، بعد أن أخرج ما في صدره تجاه مسعود، جلس وترك مسعود يداري خجله بالانتقال إلى موضوعات أخرى. عاد إلى صمته بدون أن يجد حتى فرصة للتفكير. لم يكن قدّر أنه سيفعل هكذا، حتى وهو يصعد الدرج لملاقاة أبيه، حتى بعد أن قرّر أن لا يتهرّب منه، لم ينتظر من نفسه هذه الجسارة، لم يقدر أنه سيلتقي به، لم يكن فكّر في الموضوع، بل لم يكن له موقف واضح من أبيه. أحياناً كان

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

يستحسن أن يكون له أب كلما رأى لأصحابه في المدرسة والجوار آباء وأمهات. حتى عندما علم أنّ أباه صار في البلدة لم يفعل سوى الحيرة. كان يسمع من خاله وامرأة خاله عن أمه بدون أن يصدّق، أنه كلام أهل ولا ينتظر منهم كلام آخر. لم يحقد على أبيه وكأن جريمته لا تعنيه. كان يسمع من بشرى ويسمع من خاله وزوجته بشيء من الضجر والرغبة في أن لا ينجرّ إلى موقف. كانت نقمته على أبيه هي أنه عاد وأدخله في هذه الحيرة. نقمته على أبيه هي أنه لا مناص من ملاقاته، لكنه لم يظن لحظة أنه سيقابله كما قابله، لم يظن لحظة أنه سيرميه بالكلام الذي قذفه عليه. تفاجأ من نفسه، لم يكن يعرفها تماماً، أكيد أنه كانت فيها رواسب لا علم له بها، أكيد أنه كان يحمل في لاوعيه أموراً يجهلها تماماً. من أين وجد هذا الكلام الذي قذفه عليه؟ لم يسمعه من أحد ولم يعدّه أو يحضّره، هكذا طار من فمه، هكذا خرج من صدره، هكذا وجده في داخله وكأنه فيه من سنين. بعد أن قال ما قاله جلس مبهوتاً من نفسه، جلس وكأن لا شيء بعد فيها. لم يفكر، لم يكن قادراً على التفكير. خرج والده ومعه خاله يودّعه. هو لم يتحرك من مكانه، تركه يخرج. عاد خاله وزوجة خاله ولم يتكلما، كانا، هما الآخران، لا يزالان مدهوشين مما حدث. لم يكلّماه، الأرجح أنهما كانا في الحيرة نفسها. فقط سامية لا تزال في وعيها، تركت سامي الذي كانت جالسة قربه وجاءت إلى الكنبة التي عليها غسّان وجلست جنبه ولفّت على كتفيه ذراعها وقبّلته وقالت:

– بهنّيك، رفعت راسنا كلنا، رجعتلّنا ميّة وجهنا.

القبلة مع العبارة التي أعقبتها أخرجت الجميع من الحيرة. قام

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الخال جواد وقامت معه امرأته وقبّلا غسَّان، حتى سامي، الذي لم يكن دارياً، قام من مكانه وقبّله. هذه القبلات أخرجت غسَّان من حيرته بل أعطت معنى لما حدث وجعلته فخوراً به. منذ هذه اللحظة سيكون تصرّف غسَّان "صحيحاً وحميداً"، بل سيكون بدايةً لمسارٍ يجهل نهايته.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كتب مسعود رسالة لشيخه، الشيخ عثمان، أرسلها له في الفايسبوك. جاءه الجواب سريعاً يوصيه بأن يتشدّد ويروّع. كان الشيخ عثمان يرى أن الأمر هكذا يبدأ بالترويع، ولا نزال الآن في طور الترويع. لم يستحِ الشيخ عثمان من أن يستعمل كلمة "الإرهاب" ضد "عدو الله وعدوكم"، وصية الشيخ عثمان كانت تستعجل مسعود للقيام بذلك. هذه الوصيّة الحازمة جعلت حادثة غسّان تصبح ثانوية، لم يكن عليه أن يشغل نفسه بها، ما يُنتظر منه أكبر بكثير منها. دار كلام أن أبو ثائر عاد إلى البلدة ونزل عند أحد أنصاره في أطرافها. قيل إنه جاء لينتقم. أنصاره بدأوا يتوافدون. بدأ الناس يلمحونه ويلمحونهم في البيوت والشوارع. بالطبع كان هذا حديث الناس. البلدة كلها تترقّب. قيل إنهم طرقوا الباب على بشرى وهدّدوا أولادها. قيل إنهم اخترقوا حرس مسعود ووصلوا إليه، لكنهم عجّلوا بالهرب عندما لمحهم الحرس. كان الكلام يتزايد في كل يوم. أحدهم ظهر لواحد من جماعة مسعود وحمّله رسالة إليه، أن يغادر البلدة وإلاّ. بدأت البلدة تخاف. بضعة عناصر من "رايات الهدى" توقفوا عن الذهاب إلى مكاتبه تحت إلحاح أهلهم. حين مرّت أيام ولم يحدث ردّ تكلم الناس عن خوف مسعود وجماعته، قيل إنهم يحصون خطواتهم ويتصرّفون بحذر ويتجوّلون جماعات. لم يكن هذا الخبر مغلوطاً، مسعود أوصى جماعته فعلاً بالحذر والحرص، لكن الحرص في

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

مثل هذه الحالات يبدو خوفاً. قيل إن الناس تتفرّق من حول مسعود، لم تعد لعبة سلاح ومال، صارت خطرة ولعباً بحيوات. ثم كان الحادث الذي دوّى في البلدة، وجدوا أحد أنصار مسعود مربوطاً مقيّداً أمام دكانه. أُطلق الرصاص على بيت أهل مسعود حيث يقيم، لم يصبه، فالمقصود كان الاستفزاز. هذا الحادث خاصةً طعن في قوة التنظيم وفي هيبته وهيبة قائده. كان أبو ثائر وجماعته يفدون كل يوم من أطراف البلدة ويقومون باستفزاز "رايات الهدى"، وتستيقظ البلدة على خبر جديد. أحد هذه الأخبار أنهم أفرغوا محل أحد أنصار الرايات من بضاعته ونقلوها إلى حيث لا يعلم أحد. بالطبع دوّى الخبر، كيف تمكّن هؤلاء أن يفرغوا المحل تحت أبصار "الرايات"؟ الحادث الذي روّع أكثر أنهم فاجأوا موقعاً للرايات وجرّدوا حارسين من سلاحيهما، كيف يمكن أن نعتمد على أناس لا يحسنون حماية سلاحهم؟ قال كثيرون. كانت أياماً صعبة على التنظيم. يسألون مسعود ويسألون من بقي معه من جماعته، والجواب "بكره بتشوفو" كان هذا تهديداً، لمّا تواتر وتكرّر فقد تأثيره.

عمل مسعود على التنظيم، رصّه بعد أن بدأ يهلهل. وحين قيل إن مسعود أرسل مندوباً إلى أبو ثائر يفاوضه ويدعوه إلى الصلح صار التنظيم في الحضيض، صارت السخرية منه جهاراً وعلانية. أما الذي حدث فعلاً فهو نقاش بين أخوين أحدهما يحنّ إلى رايات الهدى والثاني إلى أبو ثائر، تبرّع الأول بعرض للصلح صار في اليوم نفسه على كل لسان. خلال هذا الوقت كان مسعود هادئاً، يطمئن الجميع ويجيب بابتسامة. عيناه الزرقاوان وفمه المكتنز ووجهه الصخري

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

تنقل الأمان إلى محدثه. كان يحرص على أن يظهر في السوق كل يوم، ويزور كل ليلة بيتاً جديداً، لكن هذا لم يقطع ألسنة الناس ولم يمنع تفشّي الأخبار. كان سلوكه أشبه بمرشّحي الانتخابات لا المقاتلين، وأحاديثه أشبه بكلام وجهاء القرى، لذا لم تؤثر زياراته، بل صارت هي نفسها مادة للسخرية.

أولاد أخته بشرى يسألونه وهو يستمهلهم "استنّوا بكره بتشوفو"، ولمّا تأخرت هذه "البكره" صار عماد يقول بدون مناسبة: "بكره بتشوفو"، صارت العبارة متداولة في البلدة على سبيل السخرية. ثم ثار شجار بين واحد من الرايات وواحد من أنصار أبو ثائر، ترك له نصير أبو ثائر دمغة في وجهه، وغرس في جنبه سكيناً خلّف جرحاً خفيفاً. بدا هكذا أن جماعة أبو ثائر تستقوي، بينما الرايات تنهزم، إلى أن جاء يوم تهامس فيه الناس أن شيئاً خطيراً حدث، ولمّا حلّ العصر علموا أن أبو ثائر وأربعة من جماعته اختُطفوا في الليل من البيوت التي ينزلون فيها. حاصروها بعد منتصف الليل وساقوهم مع مضيفيهم إلى جهة مجهولة. أطلقوا المضيفين في منتصف الطريق وتركوهم يرجعون إلى بيوتهم، بعد أن عنّفوهم. انتهت الثرثرة والسخرية وأطبق على الناس صمت أجوف. شعروا أنّ شيئاً من الحسم يلوح، وأنّ ثمّة ما يُدبَّر، لقد حلت فعلاً بكره. بدأ كلام هامس عن التعذيب والاعترافات، ثم سمع الناس في منتصف الليل ضجةً وصراخاً وصوت أقدام راكضة وطرقٍ عنيف، ولمّا طلع الفجر شاهد الباعة المستيقظون باكراً والآتون من القرى المحيطة أنصاباً مرفوعة وسط ساحة البلدة عُلّق عليها أبو ثائر والأربعة من عصابته مشنوقين

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بحبال غليظة ملفوفة على أعناقهم وقد تدلّت ألسنتهم وجحظت عيونهم. كانوا مصفوفين وأصغرهم الذي لا يتجاوز الخمسة عشر عاماً ذابل على العمود الذي شُدَّ إليه. أما أبو ثائر فكان مفتوح الفم مقطوع اللسان وعلى خديه كدمات سوداء. لم يكن هناك أي بيان ولا أي تبرير، فقط ورقة كبيرة أُلصقت على جسم ثالثهم وتحوي كلمة "كفّار"

خلت المدينة تقريباً، بقيت الأنصاب مرفوعة إلى أن أنزل الأجساد عنها أشخاص مجهولون، لكن الساحة صارت بعد ذلك خاليةً تقريباً، يقطعها الناس مسرعين وقلّما يتوقفون فيها. كان المشنوقون الأربعة فوق طاقة البلدة لكن شيئاً من الاعتداد مع ذلك تسرّب إلى النفوس. فالبلدة صارت مع هذا الحادث من كبريات البلدات، وصار اسمها على كل لسان. ثم أن الأربعة كانوا جميعاً من خارج البلدة التي هكذا ردّت الغزاة وطردتهم مع، أن "الرايات" كان نصفها على الأقل من الغرباء. بعد ذلك تدفّق الناس من البلدات القريبة على البلدة، الفظاعة فتنتهم، كانت صورة المشنوقين الأربعة على تليفوناتهم النقالة، تبادلها الجميع وعلّق عليها الجميع، التعليقات تضمّنت ألفاظ "التحرير" و"التطهير" و"الموت للغزاة". اسم البلدة "صيعون" صار رمزاً، وحادثة الشنق صارت مناسبة، ومسعود صار بطلاً. ظهر على التلفزيون بعباءة بيضاء ولحية مشذّبة وقال إن هذا سيكون مصير كل من تحدّثه نفسه بأن يعصى شرع الله. وصايا الشيخ عثمان "الترويع" استمرت. ما حدث جيد كبداية لكن لا ينبغي أن نقف عنده، لا نزال في طور "الترويع" وعلينا أن نمشي فيه.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

غسَّان الذي وجد في لقائه مع أبيه كلامه، استمر يجده بل يغصّ به. اللحظة التي قذف فيها كلامه على أبيه بدايةً لم يكن أمامه إلاّ أن يتابعها، لكن مسعود اليوم بعد قتل الأربعة في وارد آخر. لن يتذكر أحد ما قاله له صبي كغسَّان ما دامت الرؤوس الكبيرة لعبته الآن. وجدوا الآن حكمةً في سكوته عن اتّهامات غسَّان. غسَّان ارتاع عندما رأى المشنوقين الأربعة، كان هنا الموت بمقادير كبيرة، لكن لسانه جرى بكلام لا يعرف إذا كان يقصده.

– مجرم إذا قتل مرته بأيديه، شو بيمنعو يعلّق الناس على خشبة؟ شو خصّ شرع الله؟ هذا قاتل وبدو يقتل ورح يظل يقتل. هلق أربعة، ما بتعرف بكره قديش بيصيرو.

سامية التي سمعته يتكلّم هكذا انبهتت أول ما سمعت، شعرت أنه يخطو أسرع ممّا يجب، لكنها وجدت نفسها تتابعه.

– إيه بلّش بجريمة، لوين بدو يوصل؟ ثم بعبارة لا تعرف أين قرأتها وربما رأتها في فيلم، الدم بيجيب الدم.

كان كلام غسَّان وسامية يصل إلى مسعود لكنه لم يكن منتبهاً. الترويع يحتاج إلى أكثر من هذه الحكاية، لندع غسَّان وسامية يتكلمان، من سيقيم وزناً لكلامهما ما دامت الرؤوس المعلّقة هي المعيار. في هذا الاضطراب العظيم لن يسمع لهما أحد، ثمة أشياء كثيرة تتقدم على ذلك وينبغي القيام بها: هناك الشيخ معروف؛ هناك الذي يتَسمَّون بالليبراليين؛ هناك الفجور والسكر، وهناك الروافض والمسيحيون والدروز والعلويون. أمام الترويع عمل ربما "كثير"، على طاحونته أن تدور ليل نهار، مشانق كثيرة ستُرفع وربما أكثر من

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

مشانق. علينا أنْ نفكر بوسائل أخرى، علينا أن نضرب ونضرب حتى نُعمي، حتى لا يعود أحد يرى سوى الدم، حتى لا يعود سوى كلمة الله ووحدها العليا.

الشيخ معروف صاحب دين ويرتدي جبة وقلنسوة. ذهب في شبابه إلى اميركا واشتغل في الفبارك وعاد كهلاً إلى صيعون، رجع متديناً مؤمناً لكن بأسلوب فاجأ الجميع، لا يشرب الخمر لكنه يخالط الشاربين بل يجالسهم وهم يشربون، ويقول إنه شرب في شبابه وأنه كان حينها متديناً مؤمناً، كان الدين بالنسبة له نوعاً من التربية، من الأدب كما يقول، ويكون الواحد مسلماً بقدر ما هو متأدّب، وبالطبع لم يكن يقيم وزناً للدعاة ولا رجال الدين. وعندما سمع برايات الهدى قال إنه دين مغلوط بل افتئات على الدين، وظل يقول ذلك في كل مكان، بل صار حديثه المفضّل. ما أن يستقرّ في جلسته حتى يبدأ الكلام عن أدعياء الدين. رؤيته للدين أنه حر والناس أحرار أمامه وليس من حق أحد أن يحاسب عليه. يتهكم ويقول عن مسعود أن فقهه هو فقه الدم، وأن دينه هو دين الخنق، وأن رايات الهدى تدرّب خنّاقين وترسلهم للدعوة. كان الشيخ معروف نحيل الجسم ذا لحية خفيفة حمراء، ممازحاً بل شاعرٌ يرتجل من حين إلى حين أبياتاً باللهجة الدارجة يردّ بها على أصحابه الذين يكون أمام أحدهم كأس ويسكي أو نبيذ. مع "رايات الهدى" انفضّ المجلس ولزم كلٌ بيته، وفضّل البعض أن يغادر البلدة، لكن الشيخ معروف لم يقم حساباً للرايات وبقي يقول عن مسعود إنه يدعو إلى الله بالسكّين ويسمّيه "الخنّاق"، ويزيد أحياناً فيسمّيه "خنّاق الله" ويسمّي الرايات "الخنّاقون"

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كان الناس ينتظرون عقاب الشيخ معروف، لكن مسعود تمهّل وترك الشيخ يرغي، حتى أنه ألّف أنشودة سمّاها "مسعود الخنّاق" انتشرت في البلدة ووصلت حتى إلى فتيان المدرسة. ترك مسعود الشيخ يراكم أغلاطه، والشيخ ساهٍ لا ينتبه ويحسب أنهم لن يتجرأوا عليه، إلى أن اختفى وقالت زوجته إنهم قادوه من بيته بعد منتصف الليل، وانقطعت أخباره، إلى أن خرج المصلّون من الجوامع التي عجّت بهم، فالصلاة فرض وفي أوانها يحتشد الناس في المساجد وتقفر الشوارع. خرج المصلون فوجدوا الشيخ معروف في قفص وجنبه اثنان من "الرايات" لمّا اجتمع الناس حول القفص انتظر الاثنان إلى أن اكتمل الحشد، ففتحا علبة بنزين وصبّاها على الشيخ الذي تخبّط دون جدوى بقضبان القفص، ولمّا تبلّل الشيخ بالبنزين أخرج أحدهما علبة ثقاب أشعل بعود منها ورقة رماها داخل القفص وتراجع بأقصى السرعة، لتهبّ النار وتأكل بسرعة كبيرة الشيخ معروف الذي استحال بسرعة فحماً ورماداً.

الدكتور صالح لا يتوقّف عن المشي، تراه في أي مكان من صيعون مندفعاً مسرعاً كأنما يخشى أن يفوته شيء. لم يكن لقب الدكتور منحولاً، فالرجل كان أستاذاً في الجامعة في كلية العلوم، قبل أن يقرر في يوم ترك التعليم والانصراف إلى المشي في أنحاء البلدة. يظن الناس أنه يطارد الشمس ويحاول أن يوقفها، لكن الذين يكلّمون الدكتور صالح يعلمون أنه له غرضاً آخر. الدكتور، الذي طال شعره وطالت لحيته ويرتدي ثياباً أنيقة مصراً على ربطة العنق وعلى لبس طقم مقلم غالباً، ويقف أحياناً كشرطي السير وسط السيارات الزاحفة، لم

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

يكن ليوقف الشمس، لكن ما يشغله إلى حدّ الهوس هو معرفة اسم الله الحقيقي الذي يأمل أن يقع عليه، ويكون الأول الذي يتاح له ذلك، فيتغيّر عندئذٍ مصير العالم، وربما يؤذن ذلك بالقيامة. كان وجد طريقة لتصفية الكلمات في القواميس والكتب، يفرز الكلمات التي يمكن أن يكون بينها اسم الله الحقيقي، إذ أن ما نعرفه ليس سوى صفات، والاسم الحقيقي خافٍ على الناس واكتشافه سيغيّر فوراً الطبيعة فتبدأ الزلازل وتخرج البراكين من باطن الأرض وتتحرك البحار وتهتزّ الجبال وتتشقّق الأرض. كان ينظم قوائم بالكلمات التي يحتمل أن يكون فيها الاسم الأقدس، ويقرأها بصوتٍ عالٍ متوقعاً أن تجاوب الطبيعة على الاسم حالما يلفظ. كان يقول، كلما سئل، أنه يقترب، وأنه، في مشيه، يطبخ الأمور في رأسه، ويفكر ويفكر في خطط جديدة لمعرفة الاسم الحقيقي. كان يُعدِّل من هذه الخطط لكنه لا يتوقف عن أن يزنها في رأسه، ومن خطة إلى خطة يتراءى له أن يقترب، بل هو عادةً على وشك الوصول، فقد ابتكر خططاً "لا تخطئ". يصل أحياناً إلى اسم فترعد السماء حالما يلفظه ويظن أنه وقع على الاسم الحقيقي، لكن السماء ترعد وتمطر ثم يجيء الصحو ليكذّب توقّعاته فيخرج إلى العراء ويمشي ويمشي، وهو أثناء ذلك يدبّر ويدبّر، يحمل قوائم حسب الأحرف وحسب الفئات وحسب المعاني، لكنه، كما يقول، يقترب دون أن يصل.

كان بالنسبة للناس مجنوناً وغالباً ما يتهكّمون عليه ويسألونه إذا أوقف الشمس، فيتطلّع إليهم بنظرة استعلاء ويقول إنها لا تتوقف بأمر أحد. جوابه كان غالباً ما يحيّر السائل، إذ أنه يدلّ على عقل يظنّه

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

مفقوداً. يستوقفه أحياناً أشخاص ويحادثونه وغالباً ما يخرجون من الحديث مدهوشين، إذ لا شيء في كلام الدكتور يدلّ على جنونه، فالدكتور شرح لهم كما لو كان في قاعة الصف أموراً في الفيزياء التي تخصّص بها أو في الفلك، وحتى في الطب، لكنّ بحث الدكتور عن الاسم الحقيقي سرعان ما انكشف واشتهر بين الناس الذين صاروا إذا صادفوه يسألونه إذا كان اقترب، فيطمئنهم ببسمة، ويجيب بإيماءة من رأسه إنه يقترب.

اندهش الناس حينما اختفى الدكتور من الشوارع وبسرعة علموا أن "الرايات" اعتقلته، وأنه متّهم بالسحر والصلة بالشيطان. لم يعرف أحد ماذا جرى للدكتور في سجن "الرايات" قيل إنهم عذّبوه ليعترف، فمسألة كالصلة بالشيطان ليست هيّنة وينبغي أن تُلاحق وتُتابَع بكل جهد لازم. لا نعرف ماذا قال الدكتور، إلا أنهم أحضروه في قفص إلى الساحة ورفعوه على صليب، ودقّوا يديه بالمسامير، وتركوه تحت أعين الجمهور الذي أخذ يتزايد، بمقدار ما يصل الخبر إلى القرى المحيطة. ازدحم الناس حول الصليب الذي بقي الدكتور عليه يرتعد ويتألم.

هذه المرة وُجد من يعترض على إعدام مجنون، لكن شبان "الرايات" كانوا حاضرين لإقناع الناس بأن الدكتور يتظاهر بالجنون ليغطّي بذلك على صلاته بالشياطين، وأن بحثه عن الاسم الحقيقي لم يكن إلا تجديفاً وكفراً صريحاً وهزءاً بالجلالة. قال هذا ابن بشرى الأصغر خليل، فاستمع إليه الحشد وصحا معظمه على حقيقة أن الدكتور عميل للشيطان.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

ليس من وسيلة للإقناع أقوى من جسد تأكله النار. أوصى الشيخ عثمان بالترويع، أوصى بأن لا يتوقف وأن لا تتخلله فسحة يرتاح فيها الجمهور من الفظائع. ليس مع الرعب ملكة للتفكير أو الخيار، ليس سوى الموافقة والتسليم. غسّان ارتاع بالتأكيد، ما يحدث يتجاوز طاقته، يتجاوزه هو بالكامل، شيء كهذا لا يوجد ردّ عليه. غسّان، من خشية أن يكون اقتنع، سعى أولاً لكي يفكّر ضد ما يجري. لم يستطع بسهولة أن يدير لسانه بكلام مضاد، كان ذلك صعباً للغاية لكنه وجد مع ذلك عبارة دارجة "هذا بربري" لينتبه بعد قليل إلى أنّ هذا لا يعني شيئاً، لا معنى لأن ترميه على مسعود وجماعته، لن يحرجهم ولن يستفزّهم. وجد عبارة قد تستفزهم "حاطين حالهن محل الله بيعذّبوا بالنار"، قالها لخاله أولاً فحذّره من أن يردّدها. في الطريق صادف الحنون الحلاّق الذي يمشي في العادة مطوّحاً بيديه، وكأنه يسبح في الفضاء، فاستوقفه قبل بيته وقال له:

– حاطين حالهن محل الله.

إلاّ أن العبارة غابت عن فهم الحنون، فوقع غسّان على غيرها وقال بسرعة:

– إيه، مجرمين، كفار.

هذه فهمها الحنون لكنها أثارت فزعه فاستعجل الذهاب إلى بيته وترك غسّان في وسط الطريق حائراً، لكنه مع ذلك وجد الشجاعة ليكلّم آخرين وانطلق لسانه فوجد بسهولة أكبر كلاماً:

– شو هنّي الله، ليعذبوا بالنار؟ مجرمين، كفار.

لكن الناس الذين تصدمهم كلماته لا ينسون أنه ابن مسعود وأن

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

عليهم أن ينسلّوا من هذه الورطة. كان يقوى كلّما أعاد عباراته ويجد شجاعة أكبر، لكنه عاد من تجربته إلى البيت وقد استنفذ نفسه.

في اليوم التالي استيقظ مكموداً وشرب قهوته ونزل إلى الشارع. الآن بدأ يلاحظ أن الناس تتجنّبه والبعض لووا وجوههم عنه، كان بالنسبة للجميع ابن مسعود، جزءاً من الرعب المتمثّل في أبيه، لا بدّ أن هناك من ظنّه يتجسّس. كان بحاجة إلى ان يكافح ضد هذه الفكرة، لذلك أخذ يشرح لمن يصادفهم.

– صحيح إني إبن مسعود بس أنا غير شكل وما بوافق على شغل بيّي.

لم يكن همّ الناس أن يصدّقوه أو أن لا يصدّقوه، كان همّهم أن يبتعدوا عنه. الرعب الذي أحدثه مسعود يجعلهم رقباء على أفكارهم، يخشون أن يفكروا ضد مسعود. غسّان لم ينتبه بعد إلى أنه في شبه لعبة كاريكاتورية. فكرة أن ينتج عن الرعب هذا السخف الصبياني، الذي يذكّر بالجبل الذي ولد فأراً، أمر لا يوجد وقت للضحك منه، لم يكن هناك أحد مستعد للكلام في الموضوع، أعمتهم اللطمة وأخرستهم. هكذا لاحظ غسان أن الناس تتحاشاه، مع ذلك صارت قصته، قصة الابن الذي يتنصّل من أبيه، حديثاً في البلدة. بالطبع وصل الخبر بالتدريج إلى مسعود الذي لم يكن معتاداً على الحيرة، كان يقرّر فحسب، لكنه هذه المرة فضّل أن ينتظر.

خلال فترة الانتظار هذه جمعت "الرايات" أربعة من اليساريين والليبراليين. كان اليسار قد انقضى أمره في البلدة من فترة، والليبرالية لم تكن مسموعة إلا في أخبار الربيع العربي، لقد وجدوها اسماً مناسباً

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

للبعض الذين لم يستنكروا. الأربعة استمروا في أعمالهم وابتعدوا عن أي كلام في الوضع. لكنهم جمعوهم. هذه المرة لم يتوقع أحد أن يرى باسل وبلال وزياد وسليم في أقفاص، لم ينتظروا أن تجتمع الناس حولها بل حُملت على زورق وأُلقيت في وسط البحر. هكذا تمّ تغريق الأربعة دون أن يتبرّع أحد بتفسير سبب ذلك. لم يقل أحد إنهم كفار أو عملاء للشيطان أو أعداء لله. لم يقل أي شيء. كان واضحاً للناس أنهم فقط خصوم، أنهم يفكرون بشكل آخر، أنهم مختلفون واستحقوا لذلك هذا العقاب الفظيع، إذ ليس من عقاب أهون. من الآن فصاعداً ليس عند "الرايات" سوى الموت بطرق شتى، الموت هو العقاب الوحيد.

كان على غسّان أن يتلقّى الرسالة التي جعلت كثيرين يهجرون البلدة. في الليلة ذاتها عاد إلى البيت فوجد خاله وامرأة خاله وسامية وسامي في انتظاره. الساعة الثامنة موعد عودته الذي يثابر عليه، كان خاله يجلس وامرأته على كنبة وسامية على كرسي. منذ دخل اقترب خاله من امرأته التي التصقت به، وقامت سامية تنادي سامي من على الشرفة. جرّ كرسياً وجلس جنب سامية.

انتظروا جميعاً حتى يتكلم الخال، الذي كان يفضّل لو بدأ غيره. انقضى وقت حتى انتبه الخال أن لا مناص من أن يتكلم، قال:

– إسمع يا إبني. إنت عمتحكي متل ما بدك. بس إنت إبن مسعود. الناس ما بتصدقك. بتخمّن إنك عمتشيل ذنب عن بيك. بس بيّك ما بيتأمّنلو. الوضع بيخوّف. أحسن تترك البلد.

تدخل سامي وقال إنه مستعد لتأمين ذلك واستضافته في بيته

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ببيروت. سامية، التي لم ترد أن تبتعد بهذه الطريقة عن غسان، لم تطق أن تقول رأياً لا تستطيع أن تتحمل نتائجه، فقالت:

– إي بيروت مش بعيدة. بنشوفك هونيك.

غسان، الذي كان لا يأمن لأبيه، لم يطق أن يهجر البلدة، كان يظن أنه الوحيد الذي لا يحقّ له ذلك. من كان مسعود أباه لا يجوز أن يهرب، إنه يحمل قسطاً من ذنبه ووحده يجب أن يتصدّى، لكنه يفهم أنه أيضاً في خطر. مسعود، الذي يحسب أن غايته القتل، لن يعفو عن أحد، حتى ولو كان ابنه. خاف غسان بالتأكيد. ما حدث كان أفظع من الموت. الحرق والصلب والتغريق، ومن يدري ماذا بعد، أشد هولاً من الموت أو هو على الأقل الموت بكل هوله. غسّان الذي في حياته مأساتان لم يفته أن الخال خائف، ليس عليه فحسب بل على نفسه أيضاً. لا يريد بالطبع أن يجرّ الشرّ إلى بيت خاله. وقع في كل هذه الإشكالات فوعد خاله أن يذهب مع سامي إلى بيروت.

لم ينزل في بيت سامي. عندما أطلّ على بيروت أخبره سامي أن من الأحوط أن ينزل في بيت استأجره في برج حمّود، هناك يستطيع أن يختفي بل يسرح على هواه بعيداً عن الجميع. بالفعل نقله في سيارة المرسيدس الرصاصية إلى مستودع واسع فيه غرفة على حدة تحوي سريراً وخزانة وحمّاماً. وضع حقيبته وسط الغرفة واستلم المفتاح من سامي، الذي دار به قليلاً في المستودع على الكتب المركومة في صناديق، لكن ما لفته أكثر بضاعة من الصابون والمناشف والملابس التحتية، ما لفته أكثر بنادق أوتوماتيكية

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

مصفوفة على الجدار. مرّ سامي أمام البنادق وبابتسامة تصطنع التهكّم قال:

– عندنا كل شي.

تركه فدخل غسّان إلى الحمّام واغتسل وخرج ضيّق النفس، فهذه العشرة للكتب والصابون والأسلحة لم ترق له، وهذا الانقطاع في برج حمّود بدا له شبيهاً بالنفي. ارتاح فقط لأن كرم سامي لم يكن كبيراً بحيث يضطره إلى أن يكون كثير الامتنان له، فهذا لم يكن مستعداً لاحتماله، خاصةً تجاه سامي الذي حاول أثناء الرحلة أن يقنعه بمصالحة أبيه، ذلك يعود بالخير على العائلة بكاملها.

– مسعود آدمي، صحيح صاير متعصّب لكنو آدمي. إنت إبنو، فيك تأثر عليه. لازم تحسّن علاقتك فيه. مش منيح بحقك إنك تهرب منو. أنا عمحسّن علاقتي فيه. منشاننا كلنا. نحنا بحاجة يكون بيعرفنا. الناس بتحكي كثير وبتوصّل كثير وما بنعرف أولاد الحرام شو بيحكولو. انتبه، يمكن ياخذو خالك وسامية بجريرتك.

لم يجادل غسان سامي كثيراً، كان أخذ سامية وخاله بجريرة كلامه فكرة ثقيلة على صدره، لم يرد أن ينفيها فيبدو كأنه يتبرّأ منها ويلقي بخاله وعائلته إلى الخطر. لم يكن خاله ثرثاراً بل متكتم. خوفه على سامية التي لا تمسك لسانها، بل خوفه أن ينتقم مسعود من أسرة خاله، فلديه لذلك أكثر من دافع ودافع شخصي، قتله لزوجته لم يكن عن عبث، ولا بد أنه جرّ عليه كراهية لها ولأهلها، هناك جريمة بين العائلتين، هناك حقد ولا يعرف أحد ماذا سيجلبه. مسعود اليوم يضرب شمالاً وجنوباً، وقد تصيب إحدى ضرباته الخال وأسرته.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لم يجادل غسان، بالعكس، جعله كلام سامي يشعر بحسرة تقبض صدره. الأمور تتفاقم وسامي الذي يفترض الأسوأ قد لا يكون مخطئاً. هل عليه فعلاً أن يستسلم لوالده ليحمي عائلته؟ لم يكن إنذار سامي بعيداً. هل هناك حقاً حل آخر؟

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ليست أم هنية قوّادة كما هي سمعتها. كانت فقط، في شقتها الصغيرة في مبنى قريب من البحر، تستقبل رجالاً كثيرين من البلدة ومن القرى المحيطة بها، تستقبل أصنافاً من السماسرة والقبضايات وشيوخ العائلات. يجدون في بيتها دائماً كأساً ومازات. البعض يتلفنون لها قبل مجيئهم ويبلغونها ما يريدون ويجدون لدى مجيئهم مادة جاهزة وواحدة من بناتها الثلاث لمجالستهم. كانت شقتها الصغيرة عشّة ومطعماً، وقد تكون شيئاً آخر، فهذا الأمر، في الغالب، مقصور على قلّة يصلون بعد أن تفرغ الشقة، والعلامة أن يخرج الزوج من البيت ويتركه للزائرين. حلّت أم هنية وعائلتها في البلدة واستأجرت الشقة من خمس عشرة سنة، وبناتها حينئذٍ صغيرات، وسرعان ما بدأ جمالهن يظهر من الملامح التي أخذت تنكمش وتتغير. بسرعة باتت لهن خصور دقيقة وصدور كبيرة وأرداف إجاصية ووجوه مشرقة. كن هكذا جواهر مشعّة في هذه العلبة الصغيرة المظلمة التي هي شقتهن. كان البيت، كما لاحظ جيرانه، يستقبل رجالاً تدل هيئاتهم وثيابهم على أنهم من غير طبقة سكان الشقة ومن غير مقامهم. لكن مع نضج الفتيات بدأ هؤلاء الزوار يتكاثرون. لم يكترث الجيران إلا عندما بدأ بعض الرجال في المبنى ينسلّون إلى شقة أم هنية. عندئذٍ علا الصياح، ودخلت أم هنية وبناتها في شجار مع بعض أهل الشقق، كان كلام أم هنية فيه صريحاً:

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

– ردّوا رجالكن. نحنا ما عزمناهن. هني بيجو من حالن. ردّوهن ونحنا ممنونين، ما شايفين منهن شي يحرز.

ولم تفصح أم هنية عن "الشيء" الذي يحرز، لكن هذا الجواب كان بمثابة لطمة للزوجات الغاضبات، فالبلدة طالما تندّرت به، وهذا الشيء الذي لا يحرز صار حديث المقاهي. حين سيطرت "الرايات" انقطع الرجال عن زيارة أم هنية، وبقي قليلون يتصيّدون فرصة خلوّ الشارع ليسارعوا إلى الصعود إلى بيتها في الطابق الثالث. شعرت أم هنية بالخطر لكنها لم تجد حلاً غير أن تبقى وتنتظر، ولما وجدت الرجال ينسلّون إلى بيتها في أخريات الليل، وتكرر هذا، شعرت بشيء من الأمان، فعادت تستقبل الرجال وعاد الرجال إلى سيرتهم الأولى. لكن الحال لم تستمر على هذا، فقد داهمت "الرايات" البيت وساقت أم هنية وبناتها. بقي هؤلاء أسبوعين في سجن "الرايات" ثم عُثر عليهن على الشاطئ وقد تزينّ وأُحيطت عيونهن بهالات زرقاء وانصبغت شفاههن بالأحمر وأحاطت أعناقهن أكاليل من الزهر وارتدين ثياب عرائس، لولا أن وجوههن كانت مكمودة لصدّق الناس زينتهن. ثم جاء رجلان مقنّعان بالأسود ومدّا سلكاً كهربائياً أحاطا به أعناق النساء الأربعة. منع الرعب النساء الأربعة من الاحتجاج أو الصراخ، ما تعرّضن له حبس أصواتهن وألسنتهن، كنّ ينتظرن موتهن بتخشّبٍ واضح. أدار الجلادان الموتور الكهربائي واختنقت الوجوه المصعوقة وطار أحدها عن كتفي صاحبته، وتُركت الجثث الأربعة متفحمةً على الشاطئ.

كان الخبر مريعاً لغسّان الذي يعرف أم هنية، فقد سبق لابن خاله

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

فؤاد أن صحبه إلى بيتها، وجلس غسان إلى جنب أم هنية يحادثها فيما اختلى فؤاد بابنتها الصغرى في الغرفة المقابلة. كانت امرأة جميلة في عمرها، لطيفة وقدّرت كثيراً زيارة غسان، الأول بين طلاب المحافظة. تذكّر وجهها الذي كان يلمع وغمّازتي خدّيها وعينيها اللوزيتين الخضراوين. تذكّر بأي أمومة كانت تحادثه هي التي، كما قالت، لم ترزق صبياً.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

زارته بعد أسبوعين سامية. وضعها سامي على باب المستودع وأقلع بسيارته. قالت سامية إنها أرادها أن تلتقي غسان في بيته هو لكنها أصرت على أن تلتقيه حيث يعيش، غير مبالية بغضب سامي. كانت سامية ببنطلونها الجينز المعتاد وبخواتمها العديدة وعقد رخيص. وصلت إلى الغرفة وجلست لتوها على السرير ونادت غسان ليجلس معها بعد أن عانقته طويلاً وتنهدت على صدره. لم تنتظر أي سؤال بل حدثته عن والدتها التي صارت تصلي وتدعو له في صلاته. أبوها المؤمن لا يصلي ويعاني من رئتيه، الاثنان خائفان عليه وعليها وعلى نفسيهما. ثم كان الحديث الذي جاءت من أجله، كان عن سامي الذي صار في "الرايات" وهو الآن أحد مرافقي مسعود. حاول أن يقنعها بأن ترتدي الحجاب، لم يكفه الفولار الذي تضعه منذ سادت "الرايات"، يريدها أن تتحجّب كنساء "الرايات" إنها مع ذلك علاقة مصالح، الآن تكلّفه "الرايات" بكل ما تحتاجه، وثمة مهام سرية تفترض سامية أنه يقوم بها. لم تصدق حين أحضر رشاشاً إلى المنزل. تفهم أن له مصالح وأنه يهتم بها، هي ليست نبيّة ولا تريد الناس أنبياء، لكن هذا قاتل عمتها، قد تسايره خوفاً لكنها تظل تحتفظ بشيء لنفسها. قاتل عمتها تخاف منه، من يعيب عليها ذلك، لكن ليس أكثر.

سامي تخطّى ذلك، صار في "الرايات" ويريدها أن تكون معه،

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أن تخضع طوعاً لقاتل عمتها. من يظنها هذا الوغد، رخيصة إلى هذا الحد. هي لم تعد تحبه، لا تعرف إذا كانت أحبته يوماً، تلوم نفسها لأنها أوقعتها في هذه الورطة، تقول هذا لوالديها اللذين يتفهمانها، لكنهما لا يريدانها أن تواجهه بذلك علناً. لا تنسى أنه يحميها ويحميهما من مسعود الذي ينوي، بالتأكيد، به وبهما شراً. يريدها أن تسايره خوفاً على غسان الذي هو بالتأكيد ابنهما. تتكلم بجمل قصيرة، تتكلم على عجل، الجمل تتدافع في فمها وكأنها تزقزق، يستمع غسان إلى موسيقى هذا الصوت. سامية تقريباً لصقه، سرعان ما يصير وجهها في صدره وفمه الذي كان في أعلى وجهها، يقبّلها في رأسها وفي عينيها، وحيال ذلك تتنفس في صدره وتمرّغ وجهها عليه.

في الليلة ذاتها، وغسّان ملقى على السرير وقد داهمه النوم على هذه الحال، شعر بثقل يمر على صدره وبشيء يقضم شعره. فتح عينيه وامتدت يده إلى صدره وإلى رأسه فشعر أن شعره يتحرره من شيء، انسلّ بسرعة وغدا جنب حذائه تحت السرير، كان جرذاً أبرش أسود يتطلع إليه ويتراجع بدون عجلة إلى الوراء. لحقه غسان ورآه يركض، وقد أحسّ به، إلى المطبخ ليختفي في بالوعة هناك. فتح جوارير الخزانة فوجد أنّ في جارورها الأسفل تمزق الورق وترك الجرذ بقايا من فضلاته. ظل هذا هاجس غسان طوال الليل، فقد مرّ الجرذ بالتأكيد على صدره وشعره، كان النعاس ثقيلاً على جفنيه وكلما أوشك على النوم طار بسرعة من عينيه وعاد ينظر إلى العتمة التي تتصور في الزاوية على هيئة جرذ أبرش. لم ينم ليلتها وظل كل

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

برهة يذهب ليتفقد المطبخ، لكن الجرد ظل في البالوعة. في اليوم التالي، على باب المطبخ، صادف الجرذ يقفز من الجارور ويتمهّل وهو يتطلع إليه ثم ينصرف إلى البالوعة. اشترى لحماً مسموماً لكن الجرذ، بطريقة ما، حزر وتجنّب أكله. ترك له طعاماً مسموماً آخر لكنه لم يفهم كيف يحزر الجرذ. لم يكن جرذاً واحداً بالتأكيد هو ما يراه، لا بدّ أنهم عدد من الجرذان. يتأذى أحدهم من السم فيعتبر الآخرون ويتجنّبون أن يأكلوا ممّا أكل. أكانوا عديدين أم واحداً فقد شعر غسان أنه مطارد من الجرذ فيما يتظاهر هو بأنه يطارده. يمكن للجرذ أن يخرج من أي مكان، يمكن أن يكون فوق الأرض أو تحتها، يمكن أن يكون مختفياً في جسده، في شعره، وفي جلده. كان وحده في الزاوية والجرذ يملأ المكان، حضوره عارم بحيث يفتش عنه في بدنه، إنه يجبره على أن يتضاءل، ينكمش، يقف شعره في جلده كما يقف شعر الجرذ، ويحسّ بنفسه يذوب في الظلمة أو يتكون منها مثله.

في الصباح هدّه التعب فسقط على الوسادة قطعةً صمّاء زال عنها كل إحساس وكل قلق.

رنّ الجرس مراراً فسمعه في نومه، ومع إلحاحه نهض وما زال النعاس في عينيه. كان عليه أن يتمطّى في سريره وأن يتثاءب مرات بفم فاغر عندما رأى سامي أمامه يسأله:

- عمى شو بتنام! صارت الدنيا الظهر وبعدك بالفرشة.

آثر غسان أن يطوي حكاية الجرذ، لم تكن به طاقة على روايتها، لذا ابتسم لسامي متواطئاً معه. مطّ شفتيه بينما استمر سامي في صخبه:

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

– نام، شو همّك. مرتاح وتارك غيرك يعارك. مش داري بشي. إنت زمطت وخالك وسامية وحتى أنا مرصودين. إيه نحنا مراقبين. العين علينا. ما تصدق إذا قالولك عنّي صاحب مسعود. هوذي ما إلهن صاحب. إيه ما إلهن صاحب. بيّك بيظل يسألني عنك وبيقول إنو نحنا خافيينك، بيقول إنو خالك ما بدّو ياك تروح لعندو. بيقول هيذي ترباية خالك. ربّوك على كره بيك. بيقول إنو بنت خالك بتعبأك ضدو. وأنا مصاحبو صحيح، بس هوذي ما إلهن صاحب. وإنت نايم. شو بيهمك. حطيتنا بهالجورة وهربت بجلدك. بدك رأيي، روح عند بيّك. ما زالك بعيد عنو مش رح يروق. وكلنا مهدّدين. إي روح عند بيك. هيذا حاكم البلد، بيجرح بظفروا. بدك بيْ أقوى منّو؟ منين رح تلاقي سند أقوى؟ روح لعندو، بتخلص إنت وبتخلّصنا. بتصير أنت تجرح بظفرك، مش هربان. هيذي فرصة لازم تستغلها.

سامي مسترسل في كلامه وغسان يستمع ويتذكر ما قالته سامية عنه. مع ذلك لم يكن سامي يكذب، كان صوته صارماً وجارحاً كأنه صوت القدر. أحقاً رمى خاله وسامية وحتى سامي في حفرة؟ أحقاً تركهم تحت رحمة مسعود؟ أحقاً هم الآن مهددون؟ من يستكثر شيئاً على مسعود؟ من يستبعد أن يفعل أي شيء بعد ما رأينا ما فعله وما يقدر على فعله؟ لكن ماذا يريد مسعود منه؟ فقط أن يكون جنبه؟ ألا يريد منه أن يدعمه، أن يكون ذراعه، أن يقتل ويجرم مثله؟ وهل يقدر هو على أن يكون كذلك؟

جلس سامي جنبه على السرير واسترخى فوق الفراش، لقد أخرج

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ما في داخله وهو الآن يبدو حقاً ساخطاً وخائفاً. كان يحاول خلع حذائيه عندما لمح الجرذ يعبر أمام الباب، قام بسرعة وقفز عليه، بينما الجرذ ارتبك يحاول أن يفلت، لكن سامي بكل سخطه وغضبه لحقه ونزل عليه بحذائه فهرسه ورفع الحذاء عنه فبدا ممعوساً مبقوراً وقد لطّخ الدم فمه وشاربيه. تركه سامي يتلوّى وعاد فنزل عليه بحذائه، هذه المرة عندما رفعه عنه كان الجرذ قد همد وسكن تماماً.

دخل سامي إلى الفراش بعد أن خلع جاكيتته ورماها على حافة السرير. كان يرتدي قميصاً أبيض يحيط ياقته شريط بنفسجي وبنطلوناً كيّته مسحوبة على طوله تمدّد بهما. ذهب غسان إلى الحمام وعاد فوجده نائماً. لم تكن مرت خمس دقائق، سامي ينام ساعة يريد ونومه، كما هو الآن، هنيء، لا شخير ولا صرير أسنان ولا أمارات تشنّج في الوجه. ينام خفيفاً، يتنفّس بهدوء وينشر حوله رائحة لطيفة. ترك سامي ينام وجلس على كرسي قبالته. كان يفكّر، لا بدّ من تسليم نفسه لأبيه، لكن ليس الآن. يمكنه أن يقضي ليلة بعد هنا. على كرسيه شعر بالوقت منتظماً خفيفاً وأنيساً كرائحة حلاقة سامي كأنما يخرج من أنفاسه. هل هو خائف؟ فات أوان هذا السؤال. إذا تسليمه لنفسه يرفع يد مسعود عن خاله وسامية فعليه أن يفعله، لكن ليس الآن. يستطيع أن يكون حراً ليلةً أخرى. لم يجد سوى قميص البارحة ليرتديه، كان يحبه لكنه مشبع بعرقه. لا يحب أن يضع على جسده بعد الاغتسال قماشاً ملوّثاً. لا بدّ من تسليم نفسه، كان هكذا يكلّم حاله. تذكّر مسعود، ذلك الوجه الصخري بعينيه الزرقاوين النفاذتين، بذقنه المربعة، بهيئة برت لانكستر ووسامته وشبهه به، يقال إنه طبق الأصل

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

عنه في شبابه، لم يحب غسان ذلك، ما الذي يحمله من أبيه غير ذلك، خاف أن يكون يحمل أكثر. لم يكن غسان يبالي بالعقائد وها هو أبوه حجر عقائدي. هل كان عليه أن يداريه أكثر، كأن يقول له إنه لا يعتنق فكرة من أي نوع، ربما ابتعد عنه وتركه لنفسه. كان يفكر على كرسيه ولا يزال الشعور بوسخ القميص والعرق الذي تشرّبه سارياً تحت أفكاره. ما الذي سيقوله له حين يذهب ليسلّم نفسه؟ هل ما زال في وسعه أن يكلّمه كالمرة الأولى؟ لا يظن، الآن ينتظر بالتأكيد كلاماً آخر، وعلى غسّان أن يعرف كيف يقوله. عليه، بدون أن يتنازل، أن يكون أكثر طراوة. بل عليه أن يتنازل. هل يتملّقه؟ يمتدح "الرايات" وما فعلته في البلدة؟ لا ليس إلى هذا الحد. إنه أبوه، أليس من الأفضل أن يكلمه كابن وينسى "الرايات" وأعمالها؟ هل يكفي هذا والده؟ ماذا يريد منه، أن يأتي لمواجهته أم أن يبقى معه؟ بالتأكيد سيذهب إلى لقائه، لكنه الآن يشعر أنه أعزل، قد لا يجد كلاماً يقوله، قد يأكل لسانه الحرج والخوف، لماذا لا؟... الخوف. أليس مسعود مخيفاً للجميع؟ ألا يخافه أبناء أخته؟ فلماذا لا يخافه ابنه؟ المهم أن لا يكون الخال وسامية مهددين. كيف يمكن إخراجهما من اللعبة؟ ينبغي أن لا ينسى ذلك، أي شيء في هذا السبيل مقبول وطبيعي، أي شيء، حتى لو كان التوسّل والاعتذار، أي الكذب. لماذا لا؟ الكذب. أليس ذاهباً ليكذب؟ فليكذب بفنّ، فليحسن الكذب. الآن يبدو الحق مع سامي، لا سبيل إلاّ المجاملة والتظاهر، عليه أن يتظاهر. ماذا لو أوقظ سامي وحبك معه ما يجب أن يقوله لأبيه؟ سامي يعرف مسعود وبالتأكيد يعرف مزاجه وأطباعه، يعرف الكلمة التي تؤثر فيه والكلمة التي

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ينتظرها من ابنه. لماذا لا يوقظ سامي ويحبك وإياه؟ لكن لا. سامي انتهازي، لا نعرف كيف سيستفيد من القصة، لا بدّ أن يضع فائدته بالأول، لا بدّ أن يكون الرابح وبالتأكيد سيبيع الجميع وسيعمّر على ظهورهم. لا، لنتركه في نومه، وعندما يستيقظ يمكنه أن يتّفق مع غسان على المشوار إلى صيعون وعلى بقية التفاصيل. لماذا نسي أمه؟ كان عليه أن يزور بيتها، أن يسمع حليّها تحدّثه، بالتأكيد كان سيسمع وصية ثمينة، والدته تحميه، كانت بالتأكيد نصحته بشيء. عندما يعود إلى صيعون سيكون أول ما يعمله هو زيارتها في بيتها والجلوس على قبرها. هل حقاً ذهب مسعود إلى القبر وبكى هناك؟ شاهدوه يفعل ذلك، لكنه عاد إلى البلدة مجرماً ولو تسنّى له أن يقتلها مرةً ثانية لفعل. الآن يقتل بلا سبب، لكنه يجد دائماً سبباً ليقتل. بالتأكيد يستشير شيخه الذي يوصيه بالترويع. شيخه بالتأكيد لا يهتم بالأشخاص وبحقوقهم، فقه الدم الذي ينشره يؤمن فقط بالترويع، إلى حد أن القتل هو الوصية الدينية الأولى. لا يستطيع الشيخ عثمان وأمثاله أن يتخيّلوا الدين منفصلاً عن الجهاد. إنه حرب وحرب دائمة لا تتوقف ويجب أن لا تتوقف، وكلما أوشكت على التوقّف ينبغي البحث عن سبب آخر لإشعالها. هل يمكن أن يكون مسعود نادماً على خنق عايدة؟ ليس أكثر من ندمه على قتل الشيخ معروف والدكتور صالح والبقيّة. إنه صانع مشاهد، صانع ألعاب، يدبّر كل مرة قتلاً مختلفاً، مشهداً مختلفاً، يحوّل الموت إلى لعبة، إلى مشهد.

الشيطان نفسه يتحوّل إلى لعبة، إلى صليب ومشنقة وأقفاص غارقة في المياه وسلك كهربائي ونار وقذيفة. إنه تقريباً دمية عملاقة، يحضر

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

عند الطلب. هو شريك في اللعبة التي لا تزيد عن إخراج دمى شيطانية أمام الجمهور. الشيطان وصاحبه يتلاعبان. المنظر الباهر، منظر النار التي تأكل الجسد في لحظة. السلك الذي يصعق في ثانية، القذيفة التي تنثر الجسد في لمحة، أعجوبة! إنه السحر الذي لا يتم بدون قوة شيطانية، إنهم يستحضرون الشيطان ويستغلون قوته، يستعملون سحره، يستعيرون فنّه، وهذا المنظر الباهر بالتأكيد شيطاني، وهو فن لا يقدر عليه سوى شيطان.

لم يعرف غسان ما الذي ألهم سامي ليقصده في الصباح، كانت ليلة أمضاها مفتوح العينين غير قادر على أن يحزم أمره ويقرر، كان يظن أن ذلك يحتاج بعد إلى ليالٍ أُخَر. ها هو سامي يدخل عليه ويقول له: "ما بدك تروح ع صيعون؟ ليش بعدك مش لابس؟" انصاع لصوت سامي، أراده أن يقرّر عنه. لم يكونا اتفقا على الصعود إلى صيعون، لم يتحدثا في ذلك، كان هذا فقط كلام سامي، لقد سمع نفسه كالعادة وحضر. مع ذلك لم يتفاجأ غسّان، كان كأنما ينتظره، صعد إلى جنبه في السيارة وأرخى جسمه على المقعد، لكي لا يواجه ظل بصره معلقاً على المشاهد التي تتابع أمام السيارة، يرى ولا يرى، يفكر ولا يفكّر. لم يكلّم سامي حتى حين بدأ هذا يرسم له ما سيفعله في صيعون.

- بتروح ع المركز وبتطلب شوفة بيّك. أكيد هوّي ناطرك، بيسوى تتقابلوا برواق، انتبه ع حالك. إيّاك تنرفز.

لم تكن الأمور بهذه السلاسة في ذهن غسان، كان ثمة خوف لا يعرف مصدره. نصيحة سامي بدت له برّانية، بالكاد سمعها. لو

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أن الأمور بهذه البساطة. سمع ولم يصدّق. كان سامي يسوق ولا يتوقف عن الكلام، غسان يسمع وينسى فوراً. لم يكن غارقاً في نفسه لكن يشعر ببرّانية كل شيء حوله. لا يعرف كيف وجد صورة سامية وصوتها في نفسه، شعر بارتياح وتنفّس بعمق. خطر له قبر والدته وبيت أهله، فكر أن يذهب أولاً إلى هناك. نزل من السيارة ولم يستمع لكلام سامي الذي يوصيه بأن يمرّ أولاً على المركز. قطع الساحة وهو يحرك قدميه بشكل آلي، وسلك الزقاق الذي يؤدي إلى البيت وكأنه يسير منوّماً. كان الباب مفتوحاً وبقفزة صار عند قبر امه التي لم يستطع أن يستدعي صورتها، فيما لمعت في باله صورة يسرى.

كان المفتاح في الباب، إنهم ينتظرونه. أدار المفتح في القفل لكنه شعر أن الباب انفتح من تلقائه. دخل، كان كل شيء نظيفاً ومرتباً والضوء يغمر المكان. عكست المرآة صورته فوجد لنفسه هيئة الهارب فيها. رتّب شعره وألقى نظرة على المنضدة، رأى حليّ والدته عليها ولم يسمع صوتاً. ارتاح لذلك ودار في القاعة واستعدّ للخروج. كان قرب الباب حين أتاه صوت راعد:

– لوين هربان؟ ما بدك تسمع؟

لم يجب وتابع الصوت:

– رايح تشوف بيّك. اهرب أحسن لك. بدك تحمي خالك وبنت خالك، يا مسكين شو عمتتخيّل. هذا مجرم ما بيعفّ عن شيء. أحسن تهربوا كلكن، كلكن اتركوا البلد، اهربوا قبل ما تموتوا. هذا ما بيرحم. بتقول ما بيقتل إبنو! إيه بيقتلك. روح من وشّو. أكيد بيقتلك.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لم يجب. كان ينتظر أن يسمع ذلك، ربما دخل ليسمعه. فكّر فعلاً بأن يهرب فور خروجه لكنه عاد إلى الساحة وتوجّه إلى المركز الذي كان مبنىً من عدة طبقات. استوقفه الحارس المرقّط الذي كان أمام الدرج:

– شو بدك؟

– بدي شوف (وهنا لم يجد بسرعة الكلمة) الأخ مسعود.

– عندك موعد؟

– لأ بس أنا إبنو. أكيد بدو يشوفني.

– إبنو! بس خليني إسأل.

صعد الدرج وتأخّر قليلاً قبل أن يعود:

– إطلع، بس بدي فتّشك.

ترك يديه تجوسان في ثيابه وجسده، وأخرج من جيبه سلسلة مفاتيح تحسّسها قبل أن يردّها إليه.

صعد غسان، وعلى رأس الدرج رأى على الباب حارسين مسلحين أمسكاه من ذراعيه وأعادا تفتيشه.

قال أولهما:

– الأخ مسعود مشغول. مش قادر يشوفك.

لم يتوقّع غسان ذلك، سمع "الصوت" يحذّره فاستدار لينزل لكن الحارسين تشبّثا به وأحاطاه من رقبته وكتفيه. لم يجد كلمة. أراد أن يقول "اتركوني أنزل" لكن الحارس الأول سبقه:

– الأخ مسعود بيقول تظلّ هون. قال لنا نخلّيك. بدّو ياك تكون موجود لمّا يلاقي وقت يشوفك.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

استلمه الاثنان من ذراعيه وصعدا به طابقين، وأمام أحد الأبواب وقفا وأخرج الأول حلقة مفاتيح وفتح الغرفة، وفوجئ بهما يدفعانه إليها ويغلقان عليه. لم يكن لديه شك في أنها غرفة سجن، فقد سمع صوت المفتاح وهو يدور في القفل. أقفلوا عليه. كان في الغرفة على مصطبة إسمنتية طراحتان رميتا وحولهما تبعثرت وسائد ولحافات. في الأعلى فتحة تعامدت فيها قضبان حديدية رُكِّبت حديثاً إذ أنها لم تُطْلَ بعد. كان الضوء يشعّ في الفتحة فيما الظل يغمر الغرفة. لم يع ما حدث، لاحظ فقط باستغراب أنه لم يخف. لم يعثر على أي فكرة في ذهنه. اتجه إلى طراحة من الاثنتين وتمدّد عليها، استرخى وأغمض عينيه لكن سرعان ما شعر بثقل جفنيه ففتحهما، كان يغالب تعبه ولم تتسنَّ له لحظة راحة صافية. سمع "الصوت"، كأنما يصله من زاوية في الغرفة.

– قلتلك أهرب، هذا ما بيتأمنلو. ما هربت. شفت وين صرت؟ بس أنا مش رح أتركك. باقية معاك.

فتّش عن المحلّ الذي صدر منه "الصوت"، لم يجده. كان "الصوت" اختفى تماماً. لم يخف إلى الآن، إنه يعرف الآن من هو أبوه، شعر أن هذه الفكرة قوّته. كان الظل يتلبّد في الغرفة وضوء النافذة يخبو. تنبّه لأقدام تخبط في الرواق وصوت يعلو:

– خذوني عند الشيخ مسعود، أكيد فيه غلط.

ثم بصوت مشروخ:

– لوين ماخديني؟

أمام الباب دبك أقدام وأصوات متشابكة، ثم فُتح الباب ورُمي

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

سامي إلى داخل الغرفة وأُقفل الباب بسرعة وراءه. كان لا يزال قريباً من الباب عندما بدأ يصرخ من جديد:

– وينو الشيخ مسعود؟ بدي شوفو. أنا بريء والله بريء.

عندئذ لمح غسّان فاستطرد:

– والله أنا بريء.

ولمّا تبيّن غسّان لم يوقف صراخه. تمعّن في وجه غسان وتحقّق منه واستمر:

– قول له لبيّك إنو أنا بريء... الشيخ مسعود بيعرفني.

ثم فجأةً رمى نفسه على غسان في الطرّاحة وأمسكه من رأسه وأغرق رأسه في عنقه وأخذ يبكي. لم يكن غسان مستعداً لهكذا حركة فتخشّب في جلسته وترك سامي يبكي على كتفه. حين افتقد سامي تجاوب غسان رفع رأسه وبقي يقول وهو يشهق بدموعه:

– والله أنا بريء. قول لبيك إني بريء.

شعر غسان بالسأم من عويل سامي لكنه لم يصح به أن يسكت، تركه إلى أن هدأ وبدأ يقترح خططاً:

– قول لهم إنك بدك تشوف بيّك. قول لهم بدي روح أنا وسامي. ما في طريقة غيرها... وبكره بيّك بيبعت وراك، بتقول له ما بروح إلا مع خيي، إيه قول له خيي سامي.

ثم بعينين راضيتين:

– بنروح بتحكي معو. بتقول له هذا سامي خيي، ما برضى إنو ينهان، بدي ياه جنبي على طول.

كان غسان يستمع ولا يستمع. منذ بدأ سامي هراءه وغسان يجتهد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لكي لا يسمع. كان سامي يطمئن نفسه، وحين أخرج كل شيء من صدره زحف إلى الطراحة الثانية وتغطّى جيداً وثبّت الوسادة وألقى رأسه عليها، ثم بضع دقائق وعلا غطيطه.

لم يكن غسان مرتاحاً لوجود سامي. لم يتوقف سامي منذ دخل عن هراء مقابلة مسعود بصحبة غسّان. كان يعيد القصة نفسها مرات في النهار الواحد. هذه مفارقة مؤلمة. سامي يعيده إلى الخوف الذي لا يعرف لماذا لا يشعر به.

انفتح الباب ودخل رجل أنيق ببدلة وقلبق وكرافات، قال إن اسمه سعيد غانم. لم يشكُ، اعترف بأنه موظف في الأمن العام واعتقلوه لهذا السبب. أدخلوا معه طراحة ووسادة وغطاء، جلس على الطراحة ثم بهدوء مدّ يده إلى داخل سترته وأخرج رزمة من ورق اللعب، قال:

- مين بيلعب ١٤؟

لوى سامي وجهه وتقطّبت ملامحه. غسان لا يعرف الـ١٤، لكنه رحّب بأن يتعلّمها، وبالفعل تعلّم بسهولة وجلس على طراحة سعيد يلاعبه. سعيد يصرخ ويناكف غسان كلما أتاه ورق جيد. كانت الغلبة في البداية له، ولمّا تحسّن ورق غسان بدأ يفعل مثله. كانت كل ورقة تنزل بقدر من الصخب. سامي بقي على طراحته يتأفف، ثم لمّا عُرض عليه أن يلعب قام من مكانه وانضمّ متأففاً، ثم صار يصرخ ويناكف خصمه مثل البقية.

لم يدرِ غسان كيف تسرّب إلى الغرفة أن عمّه عادل غادر البلدة وأن خاله وأسرته غادروا أيضاً منذ علموا باعتقاله واعتقال سامي. وحين تسرّب أن سيارة سامي التي تركها أمام المركز صودرت،

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لم يتمالك سامي نفسه، ملأ الغرفة صراخاً، ورفيقاه في الغرفة لاهيان عنه، تركاه يجعر وينزوي كسيراً بعد أن استنفذ نفسه. كانت الأخبار تتسرب، سجناء جدد عُثر عليهم في جلسة شراب، آخرون جدّفوا، غيرهم كان لهم ماضٍ سياسي بعيد. الإعدامات مستمرة. قذيفة أُطلقت على سجين وجعلته رماداً. آخرون، ثلاثة، أحرقوا في أقفاص بعد أن امتدت إليهم النار من سلك انشبك بالأقفاص. أربعة انشووا على الجمر. مرت خمسة أيام والثلاثة في الغرفة، ثم نودي على سعيد وأُخرج ولم يعد وتسرّب أنه أُعدم بحزمة ديناميت. أخيراً نودي على غسان وتشبّث به سامي، صرّخ وانتحب ورمى نفسه عليه، لكن فُصل ما بين الاثنين وأُخذ غسان وحيداً. لم يشكّ غسان في أنهم يصحبونه إلى أبيه، هذا لم يمنع من تفتيشه جيداً وأكثر من مرة، نزلا طابقين وأُدخل إلى غرفة واسعة لم يجد فيها أحداً. كان في صدر الغرفة مكتب كبير مقشور من جوانبه وفوقه رزم وفي الصدر أيضاً نسخة مؤطّرة من آية "بسم الله الرحمن الرحيم..."، على رفّ في جانب الغرفة كتب بعضها ظاهر القدَم. لم يطل انتظاره، سرعان ما خرج من مسعود من أحد الأبواب وقد طالت لحيته وارتدى جلابية بيضاء نظيفة وعقد كوفية على رأسه. خرج، وعندما حاذى الكتب بدأ يعتذر بصوت منخفض عن غيابه بداعي الصلاة. انتظر غسان أن يصافحه لكنه اكتفى بأنه ربّت على كتفه وملّس براحته على خدّه، ثم دعاه بالصوت ذاته إلى الجلوس، بينما جرّ كرسياً وجلس جنبه.

قال له مبتسماً:

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

– ما شاء الله، بيقولو إنك بتشبهني، ما فكّرت إنو هلقد ببيت خالك ما خليتني اتطّلع فيك، سبحان الله، نسخة تانيي عنّي. طبق الأصل.

صبر غسان على كلام مسعود. لم يتوقعه لكنه، كتربيته على كتفه وتمليسه على خده، كان مهدّئاً. كان لا يزال مرعوباً لكنه تمالك نفسه وقال:

– ما بظن إنك بعتت ورايي لتقول لي إني بشبهك.

ثم برغبة في تطرية الجو قال له:

– أكيد بشبهك، ما أنا إبنك، عند شك بهذا؟

فاجأه مسعود بأن أجاب بالصوت الخفيض ذاته:

– إيه كان عندي، لكن لمّا شفتك طارت شكوكي، إنت إبني أكيد، هيئتك هيئتي، صوتك صوتي.

لم يشأ غسان أن يتقدم في موضوع كهذا. كان "الصوت" في رأسه يأمره أن يطويه، لكنه لم يجد مخرجاً، ظل مسعود يقول:

– بعتت وراك لقول لك هيك. كان عندي شك. ما تسألني ليش. بس هلق طارت شكوكي. إنت إبني، ما في شك، وبدي ياك تكون معي.

وجد غسان الآن الشجاعة ليقول له:

– بس أنا بشبهك بالهيئة، ما بشبهك بالأفكار، ما فيي كون معك.

– بتصير تشبهني. بدها وقت. أنا كنت مثلك وتغيّرت، بس أنا ما بدي ياك تفكّر مثلي، بدي ياك ما تكون ضدي.

كان الحديث، لمفاجأة غسان، يتحول إلى نقاش حر. وجد غسان

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الجرأة ليقول له:

– مش بس أفكاري ضد أفكارك. أنا ضد إللي عمتعملوه.

وبابتسامة مدرّس على سؤال من تلميذ أجاب مسعود:

– شو عمنعمل ومش عميعجبك؟

كان هذا إذناً لغسان بأن يُخرج كل ما في داخله.

– الرعب اللي عمتنشروه. ما عندكن إلا القتل وعمتبتكروا طرق قتل ما إلها سابق. إللي بعرفوا إنو الله غفور رحيم.

– إيه الله غفور رحيم بس الله كمان جبار وقاسي وبحاسب. الله حساس كتير تجاه خطايا ما بتنغفر. إيه في خطايا بدها حرق بالنار ولازم نظل مرعوبين حتى من التفكير فيها، لازم نقلعها بالكامل من روس الناس. لازم الناس ترجف لمجرد التفكير فيها. لازم تتحاسب على الفكرة حتى يبطّل إلها وجود، حتى يبطل فيه شهوات. لازم يتنظف العالم، ما يظل فيه إلا الله. الله بيخوّف وبدّو الناس تخاف منّو.

– بس أنا بسمع إنّو بدّو الناس تحبّو.

– إيه، مين قلّك إنو الخوف مش محبة؟ الخوف كمان محبة. إذا ما بدنا نخاف من الله، من مين بدنا نخاف؟ الله كبير، وقد ما هوي كبير بيخوّف.

– بسن إنت منين بتعرف شو بيحب الله وشو بيكره، شو بدو وشو ما بدو؟

– لأني بعرف نفسي. الإنسان صورة الله ع الأرض. بيحب إللي بيحبو الله وبيكره إللي بيكرهو الله. مين بحب الزنا؟ حتى إللي بيزني ما بيؤمن بالزنا. حتى إللي بيسرق ما بيؤمن بالسرقة. الإيمان بالزنا،

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بالسرقة، انحراف، مرض. الإنسان الطبيعي بيفكّر متل ما الله بيفكّر. مش بس هذا موجود بكتاب الله، هو موجود جواتنا. الشريعة ما في خلاف عليها، هيي موجودة فينا، خلقانة فينا، لأنو نحنا صورة الله على الأرض، بنفكر متلو، بنحب ونكره متلو. إذا لأ بيكون فينا مرض، بنكون مش طبيعيين.

– وليش نحنا بنخوّف؟ ما نترك الله يخوّف هوي وعلى طريقته؟ عندو طرق كتير. هوي بيحرق وبيغرّق وسبق وعمل هالأشياء. الله قوي، بيعمل إللي بدّو ياه. شو حاجتو إلنا؟

– لإنو بيحبنا. بدّو يانا نكون متلو، نظاف طاهرين. بيحبنا وبيحب نعيش بلا خطية. عمل لنا جنة طاهرة ونظيفة لأنو ما بدو الأرض وسخة. الخطية خيانة وقلة شكر. الخاطئين بيغدروا وبيخونوا. الله بدو يانا متلو قوايا وطاهرين، بدو يانا نكون من هلق أحباب الله. أحباب الله يعني بننتقملو من إللي بيوسّخوا إسمو، من إللي ما بيشكروا وبيخونوا.

– اتركوا الناس لألله. إذا بدو العالم طاهر بينزل كبريت ونار عليُن.

– بالعالم فيه مؤمنين، فيه طاهرين. الله عادل، ما بياخذ الصالح بعزا الطالح. الله بيترك العالم للمؤمنين، لأحباب الله، يفرجوا قوتهن، يفرجوا قدرتهن على الترويع، يفرجوا كيف بيموتوا وبيقاتلوا كرمال إسمو. كل ما ضربوا وكل ما استقتلوا منشانو كل ما العالم بيصير فعلاً أرض ألله، بيصيروا الناس جاهزين للجنة، بيصيروا الناس صورة الله الحقيقية. الله ما بدو صورتو تتوسّخ. كل خطيئة بتوسّخ صورة

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الله وبتوسّخ إسمو.

– أنا ما بعمل شي ضد الله، بس ما بدي قاتل منشانو. ما بدي أقتل منشانو.

– إنت بتخليك متل ما إنت. ما حدا بيجبرك على شي. ما زال بتفكّر منيح رح توصل. هالأسئلة إللي براسك كانت كمان براسي. واللي بيطرح أسئلة لأنو محروق ليعرف الله بيدلّو وبيهديه.

– وهلق لوين بروح؟

– هلق بتضهر من هون. حبيت تبقى يومين لتعرف مين نحنا. هلق بتروح ع الأوضة بتجيب غراضك وبتطلع من المركز.

– وسامي؟

– شو بدك بسامي. قصتو تانيي.

خرج غسان مع حارس، صعد طابقين، وصل إلى الغرفة التي ترك سامي فيها. فتح الحارس الغرفة من حلقة مفاتيح. دخل، كان الظل بدأ يتلبّد والضوء بهت في النافذة. دار بنظره في الغرفة، فتش عن سامي، نقل نظره أكثر من مرة، في النهاية تأكّد أن سامي غير موجود.

خرج غسّان وهو يحسّ أنه انتصر. لم يقلل من هذا الإحساس جرذ كاد يدهسه وأفلت، وهو يصفر، من قدميه. صحيح أن غسّان لم يربح نقاشاً مع أبيه، لكنه لم يخسر. كان الوقت عند العصر وهو لم يأكل بعد. ليس في البيت أحد، فخاله وأسرته غادروا، كما وصل إلى علمه، لذا خطرت له فكرة جسورة، أن يذهب ليتغدى عند عمته بشرى. سار إلى بيتها، كان عليه أن يقطع ثلاثة أزقة. في الزقاق الأول لاحظ أن الساقية التي تنقل المياه المستعملة في البيوت جافة تماماً.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وعندما مر في الزقاق الثاني على دكان المعلم سليمان كان الرجل العجوز الذي اقتعد كرسيه نائماً. كانت أمامه المراطبين وتدلى حبل المحلب فوقها وثمة ذباب كثير يدور حوله. دخل أخيراً في الزقاق الذي يؤدي إلى البيت. خارج البيت وجد عمته تكنس أمام المدخل، لاحظ أن وجهها تهدّل وزادت سمنتها. لم تكن انتبهت له في البداية، ولمّا صار بمحاذتها رفعت عينيها ورأته، حدقت فيه ولم تقل شيئاً لكنها استدركت وخرج صوتها كأنه يتغنّى:

– مش قليلي. إنت هون. إنت هون. يا حبيبي. خفنا عليك. منيح إنك طلعت. قرّب لبوسك.

اقترب غسّان فاحتضنته وأطبقت بشفتيها الغليظتين على وجهه وعلى صدره. كانت بحق سعيدة به. أعادت وهي تعانقه:

– خفنا عليك. حقيقي خفنا عليك.

أخذته إلى الداخل وأجلسته في الصالون وجلست جنبه ولا تزال تحيطه بذراعها. لم يجد غسان في فمه كلاماً ليطلب منها أن تطعمه، وهي لم تنتبه، فالوقت ليس وقت طعام. كان واضحاً أنها تعلم باعتقال غسّان وسامي. البلدة كلها تعلم. لم تقل شيئاً لكنها كانت تتململ:

– منيح إللي طلعت. الله ألهمو إنو يطلعك. يا ذلّي لو كان صار شي. يا ذلّي. منيح إنك هون، يا ميمتي، منيح. مش مصدقة إني عمشوفك بعينيي. والله مش مصدقة.

لم تقل شيئاً عن مسعود لكن غسّان استشفّ من كلامها أنها غير راضية.

– البلد عمتحكي. ما إلي وش إظهر فيه بين الناس. الناس بتقول

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

إنو هذا عمل خيّك وولادك. طول عمرنا مستورين والعالم بتحبنا. شو صار لنا؟ يا ريت بقينا عحالنا.

لم يقل غسان شيئاً عن مسعود لكنه روى لبشرى لقاءه معه ونقاشهما الذي تحمست له وكانت تقاطعه عند كل فقرة:

– يحيا أصلك. منيح الجاوبتو هيك. قولك سمع. قولك ارتدع. يحيا أصلك.

ربما هي المرة الأولى التي يشعر فيها غسان بانجذاب إليها. كانت أمومية فعلاً وأحس معها بحاجة إلى أن يزور البيت حيث قبر والدته. حضر عماد ابنها، كان نحيلاً وطويلاً ووجهه مبسوط وحادّ الزوايا؛ أمارات العائلة الموجودة أيضاً عند مسعود وغسّان. حين رأى غسان في البيت لم يخفِ حرجه، كان علم بالتأكيد بإطلاقه لكنه لم يتوقع أن يراه في بيته. كان أسيره على نحو ما، لذا استكثر أن يعانقه أو يهنّئه. تجاهل كل ذلك وخاطبه بدون إشارة إلى توقيفه:

– أهلاً غسان. صار لنا زمان ما شفناك. كيفك؟

وجاراه غسّان:

– منيح. كيفك إنت؟

كان المساء قد حلّ، فمدّت بشرى السفرة، ووضع غسّان في فمه اللقمة الأولى ذلك اليوم.

بعد العشاء، غسل يديه وقال إنه متعب وسيذهب لينام في بيته. دعته بشرى إلى المبيت عندها ولم يقل عماد شيئاً، لكن رغبة غسان بالذهاب إلى بيته غلبته. ربما تعاطفت بشرى مع هذه الرغبة فلم تلحّ وتركته يذهب.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

غادر غسان. في الطريق قابل شباناً من البلدة تجاهلوه تماماً. تكرّر الأمر عندما اقترب من البيت والتقى جيراناً لخاله. خيّل إليه أنهم يفرّون منه. الرعب بالتأكيد استحكم بالناس. مرّ ببيت خاله، كان مظلماً. توقّع ذلك لكن مزاجه مع ذلك تعكّر. تجاوزه إلى بيته. كانت البوابة مغلقة، فتحها ودخل. مرّ بقبر أمه، كانت الشجرة فوقها متكتلة في الظلمة وساكنة تماماً. سار إلى باحة البيت، وجد المفتاح على الأرض، عثر به فمدّ يده وحمله. فتح الباب، ولمّا صار في الداخل أضاء فوجد كل شيء مرتّباً؛ لا بدّ أن يداً فعلت ذلك في الصباح. شعر أن الجو ساكن تماماً كما لو أن إصغاءً واسعاً يخيّم على المكان. التقط فوراً صوتاً بدا يعلو:

– يا مجنون، شو جابك ع البلد؟ بعلمي كنت بأمان. كانوا دهوروك. إلك حظ وطلعت.

أراد غسّان أن يجيب:

– خفت على خالي وسامية. قالولي إنهن بخطر إذا ما سلّمت حالي. جيت وسلّمت حالي.

– مين قلك؟ سامي؟ هيّاك عرفت إنك ما كنت عملتلهن شي. كانوا أذكى منك. حملوا حالهن وهربوا. سامي الله يسامحو، كمان التاني دهوروه.

شعر غسان بقلبه ينقبض:

– دهوروه! كيف؟

– إي شنقوه. كل البلد عرفت. إنت كنت بالحبس، ما وصلك خبر.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أحس غسان بحاجة إلى البكاء لكنه ابتلع دموعه. لم يكن سامي صديقه لكنه شعر أنه مات محله ومحل سامية ومحل خاله، مات عن الجميع. أراد فعلاً أن يبكي لكنه وجد في داخله غضباً جعله يصرخ:

– هلّق بدي أعرف ليش قتلك بيّي. صحيح إنك ختيه. كان شاكك إنو أنا إبنو.

بصوت عالٍ أيضاً كان الجواب:

– لأ ما ختيه. كان فيّي خونو بس ما ختيه. ليش هوي رجّال؟ قتلني. عميقتل ع الرايح والجايي لأنو مش رجّال. كان شاكك إنك إبنو! منك نسخة عنو طبق لزق. بس ترك ولادو بدرعا لأنو بعدو شاكك فيهن. منيح الما قتل مرتو. هالمرّة كانت العشيرة ذبحتو.

أحسّ غسّان بأن ما سمعه يعرفه كأنه خرج من جوفه. هذا الجنون الدموي لم يكن بالتأكيد لتنظيف صورة العالم، لجعلها مطابقة لصورة الله، كان فقط لإخصاء العالم، لجعله مطابقاً لصورة مسعود عن نفسه. كان عليه أن يعرف هذا. في الحقيقة يعرفه، لكنه لم يشأ أن يعرف. كان يدافع عن والده من دون أن يدري، لم يرد له أن ينشر كل هذا الدم من أجل جرح شخصي، من أجل علّة صغيرة يخفيها في بنطلونه.

رجع الصوت يصيح به:

– شو ناطر؟ فلّ. هلّق فلّ. بكرة بيفوت الوقت. هالمرة طلعت سالم. مرة تانيي بيقتلوك. بيّك وولاد عمتك بيقتلوك. ما شفت كيف كان بيطّلعلك عماد؟ أكيد كان عميفكر يقتلك.

كان عليه فعلاً أن "يفلّ". خرج وأصبح في الطريق. كان الطريق شبه فارغ، لكنه قطع الزقاق وصار في الشارع. كان الشارع أكثر امتلاءً

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وصادف أشخاصاً متعجّلين عائدين، في الغالب، إلى بيوتهم. فجأةً رأى أمامه أسرة من جيران خاله. كان الطفلان يعرفانه وطالما لاعبهما، ما إن رأياه حتى صاحا باسمه، لكن أمهما جذبتهما ووالدهما أشاح عنه، وبقي الصبيان يهتفان باسمه إلى أن ابتعدت العائلة. قاده الشارع إلى ساحة البلدة. كانت الساحة شبه خالية لكنه وجد سيارة وحيدة في موقف بيروت. كان في السيارة راكبان. قال غسّان للسائق إنه سيدفع بدل الراكبين الباقيين، ودخل إلى السيارة جنب السائق.

في الطريق إلى بيروت أخذ غسان يتابع ضوء المصابيح الأمامية للسيارة ويعدّ ما تنكشف عنه. عدّ البنايات فالشقق التي كان يفوّت بعضها فيتابع مع ذلك عدّها. لم يكن لهذا العمل من نهاية ولا غاية. أخذ يعدّ بعد ذلك أعمدة المصابيح، وحين حاذت السيارة الشطّ وصار البحر أمامه أخذ يعدّ المراكب التي لم تكن كثيرة، الأمر الذي خلق فسحات من الوقت بين مركب وزورق ومركب، تسلّى خلالها بالنظر إلى الماء يرتقص ويلمع في الظلمة التي كانت ناعمة وجعلها الطقس الأيلولي أكثر طراوة. تلهّى بالخارج بعد أن استنفذ طوال النهار داخله، كان يلاحق جريان الأشياء من أمامه. العدّ عادته منذ الصغر، كان يمشي وهو يعدّ خطواته ويحوّل كل ٦٠ خطوة إلى دقيقة. كان هكذا يعدّ الوقت في الامتحانات والاجتماعات، يصل إلى أرقام كبيرة يقسّمها على ٣٠٠ التي تساوي خمس دقائق ليعرف كم أمضى. كان ملك العالم بالأرقام طريقة لاستنقاذه وقياس الوقت طريقة للاحتفاظ بالزمن. انتبه إلى أنه حتى الآن لم يكلّم سامية، أخرج موبايله وطلبها. عندما سمعت صوته أخذت تبكي،

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لم تكن تأكّدت من نجاة غسان فيما بلغها خبر سامي. أراد غسان أن يفهم أنها تشعر بالذنب لموقفها الأخير من سامي، لكن سامية قالت له على التلفون إن سامي دخل بقدميه إلى مغارة الأسود، وأنه ضحية حساباته الخاطئة، ضحية طموحه الأهوج. "يا ويلي لو كانوا قتلوك"، قالت لغسان الذي لم تخفِ أن سعادتها بنجاته تكاد تفوق حزنها على موت سامي. عرف غسّان أنهم يقيمون الآن عند أقارب لهم في حي "الظريف" وسينتقلون بعد قليل إلى بيت استأجروه في برج أبو حيدر. قالت لغسان إنها ستلاقيه في مقهى "كوستا" الذي يكاد يقفل أبوابه، يمكنهما أن ينتقلا بعده إلى "الريغستو" يكملان فيه لقاءهما.

في كوستا، الذي هو أشبه بمظلة كبيرة منشورة من الداخل على الرصيف، وجدا طاولة وكرسيين. كان الليل تقدّم ولم يعد المقهى حاشداً. قام غسان بإيعاز من سامية وجلب فنجانين إكسبريسو. كانت سامية لأول وهلة متماسكة، جرّت كرسيين إلى الطاولة وسألت غسان عن أخباره منذ لقائه مع أبيه إلى سفره إلى بيروت. كانت تريد أن تعرف وتريد بشكل خاص أن تعرف التفاصيل. حين روى لها حديثه مع أبيه أرادت أن تعرف لا فقط ردود مسعود ولكن أيضاً حركاته وأماراته وهو يتكلم أو يسمع، أن تعرف نوعية الصوت الذي سمعه في بيت أمه كما لو كان التحذير تحذيرها هي. انتقلا بعد ذلك إلى "الريغستو"، هناك روى لها غسان أيام السجن مع سامي وسعيد. كانت أيضاً تريد أدقّ التفاصيل حتى عن سعيد. أعجبها أن يلعب الثلاثة الورق. وفجأةً، عندما لاح لغسان أنها مستغرقة في الإصغاء،

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وضعت رأسها بين يديها وأخذت تبكي، وعندما نظر إليها غسان من تحت لاحظ أن عينيها الكبيرتين ووجهها الصغير المربع مبللة بالدمع. كانت حتى قليل تتقصّى أدقّ التفاصيل: تدخل مع غسان إلى الزنزانة، تجول فيها، تلاعبه الورق مع سعيد وسامي، تحادث معه والده، كأنما تريد أن تضيف كل ذلك إلى ذاكرتها، أن تعيشه ثانيةً وتتقمّصه. عانقها غسان فقالت له:

– مش فاهمي شي. علمك كان عندي حياة، هلق ما عاد عندي شي. سامي راح، طموحو قتلو. إنت لو رحت كنت أكيد ضعت بالكامل.

وفجأةً رفعت عينيها الواسعتين وقالت له:

– لو رحت إنت كانت انتهت حياتي. كنت خايفة عليك أكثر من سامي. هلق عمببكي لأني سايرت سامي، تركتو يخبّص. مش عارفة ليش ما وقفتلّو، كان أكيد سمع مني، لكن أنا كنت هبلة وكمان طموحة، تركتو يخرّب حياتو. بالآخر عرفت إنو هالقصة ما بتعنيني. مش هذا البدّي ياه.

لم يصدّق غسان أن سامية تستطيع أن تتكلّم هكذا، لم يصدّق أن تبادره بالقول:

– فهمت بالآخر إنو إنت شريكي، شريك حياتي. إني بدي ظل معك. وحدك إنت بتكفيني.

كان هذا التصريح أشبه بالعزاء. لقد مرّ وسط موت سامي وسجن غسّان وخروجه من السجن. وسط كل هذه المعاناة بدا كذلك. اقترب غسان من سامية وقبّلها على جبينها ووضع يده على يدها التي

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لانت تحت يده. لم تكن اللحظة تسمح بأكثر. لم تكن سامية تنتظر أكثر، وفجأةً قالت:

– سامي عطاني تلفونات كانت معو لجماعة أبو ثائر. عندي على الأقل تلفون مهم. تلفون خالد. بكره بنحكي معو.

– ليش بكره؟ الساعة ما صارت تناعش. هوذي ناس سهّيرة. أكيد بنلاقيه فايق.

اتصل غسان به، تأخّر الجواب وتتابعت ستّ رنات قبل أن يأتي صوت متحشرج كأنما يأتي من تحت الوسادة. كان خالد نائماً واستيقظ على الرنين. كان لا بدّ من شرح أشياء كثيرة ومن أزمنة متعددة لشخص بعيد وفوق ذلك خارج لتوّه من النوم. لم يعد التراجع وارداً، بدأ غسّان من مجيء مسعود. بدا أن خالد مطّلع، وعندما قال له إنه إبن مسعود فاجأه بالسؤال:

– أيمتى طلعت من الحبس؟

كان يعرف أيضاً سامي ويعرف ماذا حصل له. بدا أنه يصحو لدرجة أنه سأل:

– وأيمتى منشوف بعض؟

كان الغد بالتأكيد اليوم الأنسب واللقاء في "الريغستو" الحادية عشرة قبل الظهر، فالريغستو ليس حاشداً في هذا الوقت. عندما صعد غسّان وسامية الدرج الآلي إلى الباب لم يجدا أحداً في انتظارهم. اتّخذا مكاناً على الشرفة. كان هناك زبون واحد يشرب على طاولة في الشرفة وشخص آخر على المشرب في الداخل. تلفّت الإثنان إلى غسان وسامية ثم عادا إلى حالهما. طلب الاثنان زجاجتي بيرة وصلتا

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بسرعة مع صحني فستق ورقائق بطاطا. بعد قليل خرج من الدرج الآلي رجل طويل نحيل بوجه طويل وشعر كثّ ومعه اثنان بوجهين متصخرين وعيون قاسية وسمرة بدوية. كانا في الأغلب من البدو. تعرّف الأول على غسّان وسامية واتّجه الثلاثة إليهما. قدّم الأول نفسه، خالد، وسمّى الاثنين عمار وجنيد. جلسوا وطلبوا أيضاً بيرة فقدمت بسرعة مع صحون ازدحمت بها الطاولة الصغيرة المستديرة. كان خالد يسمّي كلاً منهم "الشهيد": الشهيد غسان والشهيدة سامية والشهيد عمار والشهيد جنيد وبالطبع الشهيد خالد. سأل:

– شو رح يخترع لنا هالمرّة؟ باقي شي طريقة ما عملها؟

مرح خالد الأسود كان يجعل رفيقيه عمار وجنيد يجلجلان بالضحك، لكن غسان وسامية انقبضا. سأل خالد:

– شو بدكن نعمل يا حضرات الشهداء؟

لم يكن في بال غسان أي فكرة. لم يكن سامي صديقه لكنه مات عنه، كان غاضباً لذلك، غاضباً أيضاً من أجل سامية. قال:

– لازم نعمل شي.

– شي متل شو؟

كانت لدى خالد فكرة. "الرايات" ستقيم احتفالاً بعد ثلاثة أيام؛ إنها ذكرى أحد الصحابة، لم يتذكر خالد اسمه، ليس مهماً على كل حال. يمكنهم أثناء الاحتفال الذي يحضره مسعود بالتأكيد أن يغتالوه. شعر غسّان بضيق لكنه لم يجادل. كان ينتظر أن يفكّر واحد غيره هكذا، واحد غيره يضعه في هذا الموقف. سمع الصوت في داخله يقول له:

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

– إبعد بيقتلوك.

ارتجف قلبه لكنه سار في الخطة ثلاثة أيام قبل الاحتفال. خالد قال إن لهم صاحباً في مزرعة في طرف البلدة، يمكنهم أن يحملوا السلاح إلى بيته وأن يبيتوا عنده. قال عماد إن امرأته جميلة، وأشار إلى خالد، وجلجلا بالضحك. كان عليهم أن يتّصلوا بصاحبهم وأن يصلوا بالسيارة إلى مقربة من البلدة. هناك يلتقون بصاحبهم ويكملون سيراً على الأقدام في طريق زراعية إلى البيت. ذلك سيحدث غداً، أما بقية هذا اليوم فيقضونه في التدرّب على السلاح. خالد قال إنهم قد يحتاجون أيضاً إلى قنابل يدوية إلى جانب المسدسات طبعاً. أوصلوا سامية إلى بيت أقاربها. سامية، التي أمضت الوقت وهي تفكّر، همست لغسان تناشده أن يخرج من المسألة. غسان، الذي لم يكن متحمّساً، فكر بأنه ملزَم بأن يكون. الآخرون يقومون بذلك من أجله، وهو لهذا لا يستطيع أن يتخلّى. إنه فعلاً ملزَم. هذه الفكرة قوّته. سامية، التي شحب وجهها، رجته مرةً ثانية أن لا يغامر. أجابها بابتسامة برّانية أنه لا يقدر، أنه ملزم. وصلت سامية إلى البيت وقبل أن تنزل من السيارة دخلت في غمرة انتحاب، وهي ترتجف، قبل أن تجفّف دموعها وتخرج. ذهب غسان والثلاثة إلى خارج المدينة، حيث مراح وعر واسع. وضعوا قناني وشرحوا لغسان ماذا عليه أن يفعل. الثلاثة أطلقوا. أصاب الجنيد وحده القنينة، وكاد خالد أن يصيبها، وحين وصل الدور إلى غسان فوجئوا بأنه أصابها في قلبها. كانت تلك هي المرة الثانية التي يحاول ذلك لكنه كان واثقاً. عدد من الدورات نجح بعده الجميع بإصابة القناني ولم يخطئ غسان مرة

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

واحدة. كان بعد ذلك تمرين قذف القنابل، الذي بقي نظرياً، لكن غسان بدا مستوعباً تماماً له ولو كانت هذه مرته الأولى. لم يفكر غسان أنه سيحسّ هكذا بالسلاح متمّماً له وكأنه عضو في جسده. لقد وضع ثقته في ذراعه وبهذه الثقة صوّب. بدأ الظل يتلبّد، لاح الغروب. كان عليهم أن يفترقوا. فكرة أن يمرّ على خاله وعلى سامية خاصةً جعلت غسّان، الذي كان حتى هذه اللحظة سعيداً بفلاحه في التدريب، يتململ، لكنه لا بد أن يمرّ. لم يكن الخال عاد إلى البيت. امرأة خاله، التي يناديها ماما، أرته وجهاً منقبضاً، سألته:

– شو رايح تعمل بالبلد؟ هلقد حياتك مش غالية عليك؟ رايح بإجريك عالمصيدة؟ بيقتلوك.

سامية التي كانت في غرفة ثانية تمهّلت فيها ثم فتحت الباب وأطلّت منه:

– شو جابي تودّعنا؟

وارتجف صوتها لكنها مسحت عينيها بكمّها وذهبت إليه وعانقته بشدّة جعلته يسمع دقّة قلبها في صدره. سمعها تقول بصوت مشروخ:

– سامي إلو أخوة ينتقموا إلو. شو دخلك إنت؟

لم يبحث عن جواب، لا جواب عنده، لكنه ملزم. يعرف أنه ملزم، ليس بدون سبب بالتأكيد. بتّ هذه المسألة وليس مستعداً لفتحها من جديد. ليس سامي أخاه، لكن ما الفرق؟ هل صحيح أن سامية أخته؟ في هذه النقطة هو ضائع تماماً. لم يكن خاله حين عاد مختلفاً. هو القليل الكلام قال له:

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

– إنت مستهتر بحياتك. نحنا مش مستهترين. خليك هون، لا تتحرّك.

لكن غسّان انتظر قليلاً وخرج بدون أن يُشعر أحداً، تركهم منهمكين وخرج. لحق بخالد ورفيقيه في بيت في الضاحية. وجد الثلاثة يشربون الشاي فجلس معهم وشرب. في الصباح قاد خالد السيارة إلى البلدة. أثناء الطريق كان عمار وجنيد صاخبين، يغطيان بضحكهما المجلجل على القلق الذي ربط لسان خالد وغسّان. كانا يستدعيان كاريكاتورات صور الذبح والصلب ويطردانها من خواطر الجميع، يصطدمان على نحوٍ مدوٍّ بمخاوفهما ومخاوف الآخرين؛ اللعبة التي اجتذبت أيضاً خالد وغسان. حين وصلوا إلى طرف صيعون ركنوا السيارة في أرض بور وتناولوا منها المسدسات والذخائر وأخذوا طريق البساتين.

انتقلوا من بستان إلى بستان إلى أن وصلوا إلى المزرعة التي يقصدونها. دخلوا من فسحة بين جدارين، ولدى دخولهم رفعت الأبقار المودعة خلف السياج أعناقها وعلا خوارها. علا الصياح في قفص الدجاج وركض كلب ضخم ما أن وصل حتى أخذ يتشمّم الداخلين الذي بدأوا بمداعبته، وثب بطوله على خالد وأخذ يلحس وجهه. خرج رجل قصير يعرج برجله اليسرى ما أن رآهم حتى أقبل عليهم مرحّباً بهم. صاح عمار: "يوسف" لحقته بعد قليل امرأة ممشوقة طويلة بوجه بيضاوي وعينين مشروحتين. صاحوا الثلاثة، خالد وعمار وجنيد: "جميلة". تهلّل وجهها واتّجهت فوراً إلى خالد الذي أمسك راحتها بكلتا يديه، صافحت أيضاً عمار وجنيد، وحين

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وصلت إلى غسان، الذي كان طوال ذلك منزوياً وصامتاً، سألت:

– مين الحلو؟

ردّ غسان:

– غسان. غسان الشربيني.

ليس مهماً أن نذكر أنهم تعشّوا في المزرعة بيضاً مسلوقاً مع بطاطا مسلوقة وناموا في الغرفة نفسها اثنين اثنين على كل فراش. وفي اليوم الثاني قضوا الصباح يتمرّنون على السلاح. العصر جلسوا يخطّطون لنهار غد: سيعودون إلى السيارة التي توصلهم إلى مقربة من زقاق ينفذون منه إلى الساحة حيث الاحتفال؛ يبقى خالد في السيارة التي يفرّون إليها بعد أن يقوموا بالعملية؛ غسان وعمار وجنيد يتوارون في الزقاق وينتظرون إلى أن يبدأ الاحتفال؛ سيصلون تقريباً في وقته؛ ما أن يبدأ حتى يخرجوا ويتغلغلوا بين الناس وفوراً يشهرون مسدساتهم ويطلقون على مسعود طلقة من كل واحد ويركضون عائدين إلى الزقاق حيث ينتظرهم خالد.مكتبة الرمحي أحمد

وصلوا إلى الزقاق وتواروا خلف كوخ، ولمّا اقتربت منهم أصوات تفرّقوا ليلتمّوا من جديد خلف بناية. كانت الضجة تصل إليهم، بين البرهة والبرهة يعلو صوت "الله أكبر، لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ثم يهدأ الجو ليعود التكبير من جديد بعد قليل. بدا بعد قليل أن الجو تغيّر، بدأ التكبير يتكرّر بلا انقطاع طوال دقائق ويتبعه التوحيد بالتكرار ذاته. لقد حضر أحدهم، لا بدّ أنه مسعود. خرج الثلاثة وشاهدوا من بعيد الجمهور يلتمّ حول المنصّة ويزداد بسرعة تكتّلاً. لاح مسعود الطويل من بين الواقفين على المنصة. بدأ الهتاف له:

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

- مسعود القائد، قائد مسعود.

خرج الثلاثة ووقفوا تقريباً وراء الحشد. شهروا مسدساتهم. كان مسدس غسان في يده، صوّبه مباشرةً إلى القلب وكان واثقاً أن الرصاصة ستخترق القلب. كان الهتاف مستمراً، "مسعود القائد، قائد مسعود"، ومسعود ينحني للجمهور، والهتاف يزداد سرعةً وتواتراً. الثلاثة وراء الجمهور على خط واحد وبمسافات متقاربة، المسدسات في أيديهم موجّهة إلى مسعود. رفع غسان يده وأشار إلى الاثنين الباقيين. أزّ الرصاص الذي مرّ فوق الهتاف وفوق الجمهور. انقلب مسعود إلى الوراء وسقط على ظهره، لكنه عاد ونهض وركض هارباً عن المنصّة. كذلك فعل الآخرون. جسم واحد بقي هامداً على المنصة، مكوَّماً لم يتحرك. كان هذا جسد محمود زوج بشرى. ارتدّ الجمهور إلى الوراء. كان غسان لا يزال يرفع مسدسه، أحاطوا به من بعيد. كان المسدس في يده، خافوا أن يقتربوا منه، لكن غسان لم يجسر على أن يطلق. تراجع باتجاه الزقاق لكن الجمهور، الذي لاحظ أنه لا يطلق، التفّ حوله. ضاقت الحلقة حوله. ما زال لا يجسر على إطلاق الرصاص. حوصر فاضطر إلى أن يطلق في الهواء. ابتعد الجمهور وتفرّق عنه. بدأ يركض متراجعاً. مرّت طلقة من أمام وجهه؛ لقد بدأوا الإطلاق. أصابته طلقة في رجله فسقط على الأرض. سقط المسدس من يده وانزلق بعيداً عنه. بدأت الفلول تجتمع وظهرت عصي وسكاكين اقترب أصحابها من غسان المطروح على الأرض. كانوا صاروا فوق رأسه حينما وقف واحد بينهم وقال بصوت عالٍ:

- اتركوه. أرجعوه. بيتحاكم بشرع الله.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

تراجع الجمهور، تركوا غسان ممدداً. جاء رجل بجلابية "وصاية" على رأسه وسأله:

– مين معك؟

لم يجب غسان. كان عمار وجنيد نجحا في الوصول إلى السيارة. بقي غسان ينزف. جاء شابان من الدفاع الشعبي يحملان محفّة حملاه عليها، لكن الرجل ذا الجلابية اعترضهما:

– نحنا بنهتم فيه.

ظل غسان ينزف، وظل الرجل ذو الجلابية فوق رأسه يسأله:

– مين معاك؟

لمّا لم يجب غسان، بدأ بتهديده:

– بتحكي ولاّ نحنا بنعرف كيف نخلّيك تحكي. إحكي يا كافر.

كان غسان يشعر برأسه ينقلب، قواه تنحل والنعاس يطبق على عينيه.

ترك الرجل الشابان من الإسعاف يحملانه. تركاه في ركن من المستشفى، وحينما جاء الطبيب وجده مغمىً عليه. جرى إنعاشه وانتزاع الرصاصة من قدمه وتضميد جرحه. كان رأسه يغلي وحرارته تصل إلى ٤٠ درجة حينما جاء الرجل ذو الجلابية فوق رأسه وأعاد سؤاله:

– مين بعتك. مين كان معاك؟

لم يجب غسان أيضاً فأعاد الرجل السؤال ولم يحظَ هذه المرة أيضاً بجواب، فقال:

– ما بدّك تجاوب. على كل حال حكمك هو الموت ذبحاً.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أخرجوه إلى الشاطئ ورأسه يغلي، طرحوه على الرمل قرب الموج. تقدم عماد، ابن بشرى، وبيده سكينٌ ماضٍ، سكين كبير تلمع شفرته، حزّ به خناقه ففار الدم وبدأ الشريان يقذفه إلى البعيد. كان الابن ينطفئ والدم العائلي يصبغ الموج.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

يقتل مسعود زوجته ويهرب إلى سوريا حيث يلتحق بجماعة

يكبر ابنه غسّان في كنف خاله جواد يتيماً وحاملاً وزر جريمة أبيه وسمعة أمه.

يعود مسعود بعد ١٨ سنة ويبدأ حملته في ترويع أهل البلدة والقضاء على كل من يعارضه.

يقرّر غسّان اغتيال أبيه ثأراً لمقتل صديقه، لكنّ الأمور جرت في منحى آخر...

عباس بيضون شاعر وصحافي لبناني، مسؤول الصفحة الثقافية في جريدة 'السفير'. تُرجم العديد من كتبه إلى الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية. صدر له عن دار الساقي 'ألبوم الخسارة'، 'ساعة التخلي'، 'الشافيات'، 'مرايا فرانكشتاين'.

ISBN 978-6-14425-881-1